



عبدالله الحسيني

باقعي الوشم

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING



بأقي الوشم رواية عبدالله الحسيني

منشورات تكوين | مرابا
TAKWEEN PUBLISHING

الكاتب: عبدالله الحسيني

عنوان الكتاب: بأقي الوشم

تصميم الغلاف: حسين المطوع

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 2-11-775-9921-978

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2022

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة


تلفون: + 965 98 81 04 40


بغداد - شارع المنتهي، بناية الكاهجي

تلفون: + 964 78 11 00 58 60

 takween.publishing@gmail.com  [takweenkw](https://www.facebook.com/takweenkw)

com

 [takween_publishing](https://www.instagram.com/takween_publishing)

 [TakweenPH](https://www.youtube.com/TakweenPH)

 www.takweenkw.com

بأقي الوشم

قالآ يومًا: «الصَّيم ينسي من تمرَّهبة حلوة»،

فأومأت رفيقتها برأسها تؤيدها.

إليهما، دومًا.

قران حادي

بردِ بادي

مثل نبيّ يكذّبه قومه، كانت جدتي حمضة السّحاب.

في واحدٍ من تلك البيوت المتشابهة، اللصيقة ببعضها، ثمّة بيت، منذ ابتنته الحكومة في أواخر السبعينيات، بقي على حاله، حتى وطلائه الأصفر قد تقشّر، وبابه الحديدي كثرت حفرة، وصناديق الجرائد، التي ما عاد أغلبها يصدر، مثبتةً على جداره. وكان المارة بالقرب، في ليالي الصيف الحارة حتى، يلحظون خيط نارٍ ينبثق من فضاء حوشه، ويشمّون رائحة تُشبه الحريق إلا قليلاً، لكن أحداً منهم لا يتوجّس خطراً، إذ الجميع يعرف أنه بيت خليف عجيل، أبي، الذي يرعى أمه العجوز؛ حمضة السّحاب؛ تلك التي تتحرّى قدوم الربيع منذ أكثر من سبعين عاماً.

كانت الأرض، في الصيف، موقداً عملاقاً. لا تنخفض الحرارة، يوماً، عن الخمس وأربعين مئوية، وكثيراً ما تجاوزت الخمسين. وذلك الصيف، الذي تجاوزت خلاله عامي التاسع عشر، قالوا في الأخبار وغيره أنه سجل لدينا أعلى ارتفاع في العالم. كنا، بحسب ما يسمّيه بعض البدو قديماً، إذا ما تتبعوا المواسم بالنظر إلى النجوم، نجمة الثريا، في موسم: «قران حادي، على الما ترادي»، إذ توشك الثريا أن تغيب، أو تكنّ لأيام كما يقولون، بعدما دلتنا إلى الشتاء والربيع، لتتركنا في صيف قاسٍ وطويل، تعطش فيه الأشياء فتترادي حول أي مكان تورد منه الماء عليها تنجو. هذا ما عرفتته من تعاليم جارنا لحمضة السّحاب، جدتي، التي يهب عليها البرد من كل ناحية.

في كل صبح، وكمن تمارس طقساً يومياً، تطل من باب البيت. تشخص بصرها نحو السماء. يداها تعبثان بخيوط الشال؛ إذ في الأيام التي تصل درجة الحرارة، بالنسبة إلينا، إلى

الخمسين مئوية، كانت تحيط كتفيها به. وحين تصل إلى ما دون العشرة، والصفير أحياناً، فيتضاعف البرد في جسدها، تتدثر بمعطفٍ صوفي يصل إلى حد فخذيهما. تقطع خطوات عدة في الحوش، لتتعرف إلى كنه الجو. وحين لا يهب عليها نسيمٌ رقيق، ولا تلفحها حرارة، وهو ما يحدث دائماً، تلتفت إلينا متسائلة:

«هو الربيع إيا لو بعد؟».

وما جاء بعد؛ إذ لا ربيع، مثلما لا صيف.

تمطر، في شتائنا نحن، فلا تومض في رأسها إلا فكرة واحدة: إن ربيعاً سيخضر الأراضي ويعلّل الهواء يلوح في الأفق، فتهرع إلى الحوش، وتتعثر في العتبة؛ تلك التي لا تخطئها أبداً، إلا في هذا الظرف. وحتى بعد إزالتها إثر أحداث يوم مشؤوم قبل قرابة ثماني سنوات، كانت ترفع رجليها حين تصل إلى محلّها الخالي، ثم تترنح في خطوها. تعود إلى الداخل بعد أن تبلت بالمطر، تصطدم بنا، نحن الذين لا نهمها في حين نحاول درء المطر بعيداً عن مدخل البيت الذي بلا عتبة. تكاد تتعثر في طرف السجادة التي ترفعها أمي قبل أن تبتل. كانت ثيابها تلتصق بعظامها الهشة، تضحك، تقول: «خير، خير، ربيعنا خضر هالسنة»، فتدفعها أختي الوحيدة، مريم الهايشة، بينما تمسك بالممسحة، تزجرها قبل أن يضطر بسببها إلى صرف الماء بحلوقنا، والهايشة لا تحتاج إلى أسباب لزجر جدتنا، إذ لديها ما يكفي. تتخطانا حمضة السحاب، تتجاوز المماسح، سطول الماء، وتبشر نفسها:

«ربيعنا خضر هالسنة».

وليس ثمة ربيع هذه السنة، مثلما لا صيف.

وذلك الصيف الأخير من انتظارها، أو بالأحرى: الشتاء الأخير، بدت أحداثه، منذ أوّل، واعدة. إذ فيه جاءت الموافقة من الجهة المختصة، بعدما قدمنا طلباً، على زواج محمد، أخي الكبير، فسكنت عينا أمي واستطاعت أن تنام، أخيراً، دون أن يوقظها كابوس ما. وفيه

تولت مريم الهايشة وظيفتها الأولى، وإن لم ترقّ إلى تطلعاتها، لكنها مجرد وظيفة مؤقتة، كما دأبت تقول. وفي ذلك الصيف، أيضًا، نجح إخواني الأربعة الصغار في الدراسة واستعدوا للانتقال إلى الصفوف التالية، وسيخلف ناصر، أخي الأصغر مني مباشرة، مقعدي في الثانوية العامة، بعد أن استلمت شهادة تخرجي الذي تأخر عامين دون إرادة مني، وعليه سأسافر، لأول مرة، إلى الإسكندرية.

لكن أمي، صاحبة وجه الندبة؛ كما يسميها إخواني الأربعة الصغار (استنادًا إلى ترجمة نتفلكس لعنوان فيلم scarface)، لاحت من عينيها، مجددًا، تلك النظرة القديمة، التي تشبه لحظة الصمت في فيلم رعب؛ إذ تدرك ولا بد أن لحظة مفزعة ستعقبها. راحت تذكرنا، وكأن بوسعنا أن ننسى، بأن كل هذه المسرات، التي هي حدودنا القصوى في الفرح، قد تتوقف في ومضة خاطفة كما الموت. ثم إنه الصيف؛ الأوبة السنوية لتسليم بطاقتنا ورخص القيادة المنتهية إلى الجهة المسؤولة عنا للبتّ في تجديدها عامًا إضافيًا. كانت أمي مثل الأولين الذين إن ضحكوا طويلًا توجسوا من اللحظة التالية داعين: اللهم اجعله خيرًا. وإمعانًا في المزيد من التوجس، أردفت بأنه لم يعد ينقصنا الآن غير شيء واحد: أن ترى جدتنا حمضة السحاب الربيع.

في صغرنا، اعتاد أبي أن يصحب جدتي حمضة السحاب معنا في نزهنا الصحراوية. يتركها، عامدًا، تقعد في الأمام. حين نقترّب من مكان الاستراحة المقرر يشرع النوافذ، يخفف من سرعة قيادته؛ لعلها، في تلك اللحظة، تستشعر النسيم، ويصير بمقدورها أن ترى السماء الفاتحة، أن تتبع بعينيها الشمس خلف حجب الغيوم، فتعرف أن الربيع قد حل. يقول: «شوفي يُمه، الربيع»، حين لا تبادر برد فعل. تقلّب نظرها، يمّنة ويسرة، مثل من يقلّب يديه بضاعة رديئة. نحبس أنفاسنا. تضيّق عينيها الغائرتين خلف البرقع. ثم تأتي النهاية، لم تبصر حمضة السحاب شيئًا؛ لا سماء فاتحة ولا بطيخ.

بمحاذاة أرض معشوشبة يركن أبي سيارته. يساعد جدتي حمضة السحاب في النزول. قريبًا من زهور النوير يُجلسنا. وفي اللحظات التي يغيب فيها خلال تلك الجلسة، كان

محمد، أخي الكبير، يقربها من النوير. يمسك بيدها كمن يحثها على الدرب. يقول: «شوفي حجّية، هذا النوير متفتح قدامج ما شالله». ونحن، لحظتها، نراها تدوس فوق الحشائش، وهي تصيح: «ماكو شي»، وتردف بضيق من تدخلاتنا: «طلابة هي؟» يطلبها محمد أن تنحني وتقبض على ما تظنه فراغًا، في حين نراه بتلات أزهار. تنحني، فتفرقع ركبناها، وتنسحب عيناها إلى الداخل، تغالب وجعها لتصل إلى النهاية، حيث تمد كفيها نحو فراغ من الزهور لتقبض على حفنة من تراب، ترفعها، ترميها بوجوهنا، وتؤكد مهتاجة: ها شفتوا؟ رمل رمل! وحين يزعم محمد أن يجريدها إلى ساق زهرة، يصطادنا أبي، الذي ينهمك في طمأننتها، حتى يكاد يؤمن، مثلها، بتأخر الربيع.

تساءلنا مثل بقية الخلق الذين ظنوا أننا نملك إجابات؛ لمّ البرد تحديدًا؟ لمّ ليس مناخًا معتدلًا على الأقل؟ وما كانت فكرة أن نلجأ لسؤالها سديدة، إنما عبثية؛ مثل تنظيف قاع قدرٍ محروق، إذ لم تكن هي تخبر تلك التعقيدات التي تعانيها، كما لو كانت آلة معدة فقط على وضع الانتظار. لن نخرج منها إلا بإجابة وحيدة:

«وأنا شمدريني؟ چا أنا اخترت حظي!».

وكثيرًا ما كان محمد، قبل أن ينغلق على نفسه، ويطبق عنّا شفّتيه -اللتين تحوّل لونهما، ولفرط تدخينه، إلى الأرجواني مثل كدمة عملاقة- يسعى إلى إفهامها أن ما تفعله خطأ؛ ليس هناك ربيع، يجب أن تتكيف مع هذا. أو، ثمة ربيع، لكنه لا يجيئها، وهذا الموال الذي ننام عليه ونصحو يجب أن ترحمنا منه. يقول لأبي: «المرّة مجنونة، وإنت قاعد تعشّمها»، فيدخلان في مناوشة سرعان ما تنقلب، كعادتهما، إلى شجار كبير. ومجددًا، تصيح جدتي:

«وأنا شمدريني؟ چا أنا اخترت حظي!».

لم تكن حمضة السحاب، في عيني أبي، سوى امرأة تشعر بالبرد، وتنتظر أن تنعم بالربيع.

الذين يحبون اختلاق القصص، وسد الثغرات الناقصة، قالوا بأن البرد دخل إلى جسدها قبل نحو سبعين عامًا، أو أكثر بقليل، ومنذها ما خرج قط. ربما داست على سحر مرشوش في أول بيت سكنته بعد الخيام، ربما تراءت لها في ذلك الخلاء الفسيح الذي بقيت فيه وحيدة ردحًا من الزمن جنيّةً فتلبّستها. لكننا، على الأقل، نعرف أنها لم تصح من نومها شاعرة بالحمى. لا. هذا حالها منذ سنوات تبدو أزلية. وكل من عاصرها إما التقطه الموت، أو تلاشت أخباره مع من سافروا، ومن انقطعت علاقتها بهم إجبارًا، ومن رُحّلوا، فظلّ غموض حالها كما هو.

وإن انفتحت تلك السيرة، كانت تُدلي بحكاية واحدة، ظلّ ما قبلها مجهولًا، إذ تذكر ذلك الركب الأخير، الذي تخلّى قبل سنوات طويلة عن طيّ الخيام ورعي الماشية وملازمة الآبار، وقرر أن يشد الرحال إلى تخوم قرية تبعد عن أقرب مدينة حوالي ثلاثين كيلومترًا، في المكان الذي أضحى فيه سكننا تاليًا.

في آخره، آخر الركب، حين تتجاوز نثار الغبار الذي تثيره قطعان الأغنام وعددٌ يسير من الحمير المحمّلة بالأغراض، كانت حمضة السحاب تترنح فوق حمار كالح اللون، متدثرة بعباءة صوفية حمراء لها قبعة، متلثمة بشيلتها حتى طرف أنفها، ومهما التفت بعباءتها، فإن البرد مُلازمٌها. وكانت عيدة، زوجة عم أبي، قبل أن يبتتر أبي علاقتها لأسباب لم نفهمها، والمتلثمة بالطريقة ذاتها، تسندها مخافة أن تسقط.

وفي استراحة ما، وبينما كانوا يملؤون جرابهم ماءً من بئر قد مروا بها، انتبذت بها امرأة حكيمة، مدّتها على ظهرها فوق القاع، وأسندت رأسها إلى حجر عيدة، ثم رفعت ثوبها إلى سرّتها، وصرت عليها بسبابتها ووسطها، قبل أن ترفع رأسها مدهوشة، ترفع سبابتها:

«والله لو تندحين من عشب القاع يوميّ، ما ظهر اللّي بيح أبد!».

ثم تركتها ليست تفهم منها شيئًا.

يختض أبي ضاحكًا على تأويلات نطقها النسوة، منها تلك التي عزت علَّتْها إلى الزمن ذاته؛ حين بدأ أول مكان استقرت به عائلتنا يتحول إلى مدينة، وعمد الناس إلى الاستقرار وترك الخيام والتوظف لدى الحكومة، إذ ابتنوا عشيئًا؛ بيوتًا من الخشب، قرب المدينة. كانت جدتي حمضة، بعد انشغال جدي بزيه العسكري، لوحدها، في فضاء شاسع لا تعرف فيه أحدًا، بعيدة عن مضارب أهلها، مثل نبتة في غير تربتها. وفي ظرف شبه سنوي، كانت تفقد مواليدها الجدد، وما بقي لها في الآخر غير أبي خليف، وعمتي وضحة، ما حدا بحالها أن يتردى. يضحك أبي، يقلب يديه، يقول إنها خرابيط، كل العجائز فقدن أولادهن من قبل، ثم إن ما بها ليس وشة في عقلها، إنها تشعر بالبرد ليس إلا؛ ربما كانت علة في هرموناتها. كان أبي مسلمًا بحقيقة أمه؛ ربما ملّ البحث.

عاصرت أمي عجائز عرفن جدتي حمضة على فترات متباعدة. وكانت أمي قد ولجت البيت صغيرة، كصديقة لعمتي وضحة، وابنة عمٍ تلتقي باسمنا في الجد الثالث. وكل هؤلاء العجائز الذين مرّوا عليها ما عرفن حمضة السَّحاب إلا بهذه الحال؛ يا بردانة يا ترعص. وقد كانت مريم الهايشة، قبل أن تنشغل بتداعيات وظيفتها الجديدة في الصالون النسائي، تسأل أمي أسئلة من قبيل: «مو يمكن هذا اللي يسمونه الهبات الساخنة بعد ما تنقطع الدورة؟»، فتحك أمي الندبة التي تمتد مثل خندق من حاجبها الأيمن إلى زاوية شفتها، تجيبها: «لأ، ماله شغل. جدتج انقطعت دورتها من سنة الطفحة».

يشد بردها، حتى يقارب الحمى، حين تسمع في النشرة الإخبارية الجوية عن احتمالات قدوم الربيع. التلفزيون، مصدر رسمي، يؤكد لها حتى الأشياء غير القابلة للتصديق، إنه ليس توقعات أبي، ولا تعاليم جارنا. ترتبك، تصطك أسنانها بردًا، ونغطيها بأكثر من لحاف، حتى لا نجد بدءًا من الذهاب بها إلى المستشفى. تسألها أمي علامَ الخوف فلا ترد، إنما تُحكّم لف اللحاف حولها. يلزم أبي نفسه للسهر عند رأسها طوال الليل، يرهاها بتفاني أم، يزيل الكمادة الباردة أعلى جبينها، يغطسها في طاسة الماء، ثم يعاود وضعها، عل برودتها تخف.

تسر جدتي لأبي بأنها تتهيب قدوم الربيع، تخاف ألا يجيء كما رسمته في خيالها، تخافه يجيء مجدبًا، «بعد هالعمر، وهدة الحيل، يطلع مجدب!»، وأسوأ مخاوفها أن يقدم ولا تتعرف إليه لفرط ما انتظرتة.

وفي اليوم الموالي، تعاود قعدتها في الحوش، تفلّي بسبحتها، تنصب الشمس على وجهها كاملاً دون أن تنزوي تحت الظلال، تنهد، ترفع كفيها نحو السماء، وتقول بنبرة مطمئنة: «بعد ما تدري، ربك سبحانه!»، حتى جاء ذلك اليوم.

كان بابًا سحريًا قد فُتح لها، وقادها إلى عوالم قرّبتها مما في رأسها، وجعلتها تفهم أين نهاية ما تريد، وقتما اهتدت إلى تعاليم بوكنعان، جارنا، الذي علمها أن السماء مثل صفحة علاماتها القمر والنجوم، وقد يقرؤها من هو خبير مثله، فيعرف أحوال الصيف والشتاء، كما كان أسلافه البدو يفعلون. ولم تكن لها حيلة، قبل بوكنعان، تصبّر بها انتظارها، غير مشيها في الحوش بلا شال أو معطف، عسى أن يتلطفها الهواء، فتعرف أن المناخ البارد، أبدًا، قد تبدل.

كثيرًا ما سرنا، أيامها، إلى بيت بوكنعان. كانت، بعد كل صلاة عصر، تلتف بعباءتها، وتدفع باب بيته، فتترعب على أرض صالته، تشرب استكانة شاي مع زوجته، وعيناها إلى الباب تترقبان دخوله. كانت قد عرفت معنى أن يكون القمر محاذيًا نجمة الثريا، وقد أسمى بوكنعان حدوث ذلك بالاقتران. كأن الثريا تقترن مع القمر، فتتغير المواسم، من شتاء إلى ربيع، وهكذا. ثم راح يعدد عليها الاقترانات الستة؛ التي ينذر أولها بقدوم الشتاء، ويبشّر وسطاها بقدوم الربيع، ويتركنا آخرها إلى الصيف.

للقرانات الستة أسماء مقفاة، أعادها بوكنعان مرات عدة على مسمع جدتي، التي بدت كما لو أنها تتسلى بترديدها من بعده؛ «قران خامس، ربيع طامس»، «قران ثالث، ربيع ذالف»، وهي تهزّ رأسها تتمتم بها، لا تكاد تسمعه، أو تعيه، حين يشرح لها أن القران الخامس يحدث في اليوم الخامس من ذلك الشهر، ثم الثالث في اليوم الثالث من الشهر الذي يليه. بدا مثل

مدّرس فاشل ينتظر نهاية الحصة، وبدت هي كطالبة تحاول أن تحفظ مصطلحًا علميًا عن شيء كبير.

منذها، تعلّقت عيناها بالنجوم.

هيأت لنفسها قعدة دائمة في الحوش. قال بوكنعان، فيما قاله من دروس، إن رؤية القرائات تستلزمها أن تكون في الصحراء بعيدًا عن المدن وإناراتها. أدركت حمضة السحاب صعوبة ذلك الخيار، فاخترت آخر الليل والحوش. لا بد لبعض العتمة أن توفر لها منظورًا جيدًا للسماء وإشاراتها، هكذا قالت.

كانت، في اللحظة التي تبرز فيها أول نجمة، تخرج إلى الحوش. لا يهم ما إذا كان ذلك اليوم قريبًا من تاريخ حدوث القران، أو في شهره حتى. شالها على متنيها صيفًا، معطفها عليها شتاءً. تعرج، أولًا، إلى المطبخ. نسمع قرقعة الأدرج؛ فنعرف أنها تبحث عن علبة الثقاب. ثم تطلع بكفّ مقبوضة، تمشي إلى الحوش، إلى زاويته؛ حيث عدة أكياس من خيش مكومة بعضها فوق بعض، يحاذيها التئور ودراجات إخواني الأربعة الصغار الهوائية. تنحني إلى الكومة، تُخرج كيسًا من الخيش الأبيض ملطخًا بخربشات سود، فتحمله عائدة إلى كرسي أمامه منقلة فحم، داخل المنقلة ملقط. تفتح الكيس الأبيض، تُخرج منه قطعًا من فحم أسود قدر ما تلتقطه يداها، ثم ترمي بها في حوض المنقلة. شتاءً، شتاؤنا نحن، يختفي هذا الكيس فجأة، ولن تعرف أبدًا أن ناصرًا يأخذه إلى مخيم أصدقائه، وحتى لو عرفت فإنها لن تقوى على غضبة مراهق مثله. حين تفرغ، تسحب عود ثقاب من العلبة التي في حضانها، وتشعل الفحم، فتتطاول النار. وبحركة متسارعة، لا تتناسب وأنين مفاصلها، تسارع تمد يدها نحو علبة حليب التموين البيضوية الصدئة؛ المفتوحة من طرفيها العلوي والسفلي، وتنصبها في حوض المنقلة، بين قطع الفحم المشتعلة نارا؛ كي لا تطفئها الريح إن هبّت؛ حسبما يبدو. بعد ذلك، تقرب يديها من النار، لتسري منهما الحرارة إلى كامل جسدها. وإن أحسّت بانخاماد النار تمد يدها إلى أسفل كرسيها، لتعثر بالقرب على مهفة كرتونية،

فتهدف بها على النار. تنمسمر في مكانها، متسلية بتقليب السبحة بين يديها، إلى أن يقلب الشروق صفحة الليل.

نسألها، ونحن نغالب ضحكنا، في أيِّ قران هي. يطول صمتها كمن تتذكر. ترفع أصابعها لتعدّ: «هُمَا سِتة على قولة بوكنعان». تسكت مضيقَة عينيها تتمتم بأسماء القرانات على نحو أهوج، كأن هذا كل مبلغها من ذلك العلم. يضحك ناصر، فيلتمع جسر التقويم الأزرق في أسنانه، قائلاً: «تكلمت صالح العجيري». تتنهد أخيراً، «ربك أعلم، للحيني أنطر»، لكنها، حتمًا، في واحد من قرانات الشتاء، حيث لا يزال الربيع مختفيًا.

وكلما رأت ما خيل إليها أنه سلسلة نجوم متجاوزة، أو قمرٌ يتاخم نجمة أو اثنتين، حتى وهي تجهل مكان الثريا من السماء، حتى وهي لا تعرف شكلها أصلًا، كانت تهب من كرسيها، حتى كادت تحرق، مرة، جزءًا من شالها حين وقع طرفه في المنقلة. تسرع إلى الهاتف الأرضي لتتصل بأبي كنعان؛ عساه يؤكد لها ما في رأسها، وإن لم يُجب تسحب عباءتها متجهة إلى بيته.

وما مرّها، حتى هذا الوقت، قرانٌ واحد.

وفي ذلك الصيف، في عصر واحد من أيام يوليو، صحت من نومها لتجد عند الباب الداخلي المفضي إلى الحوش، بجانب تنور أمي ودراجات إخواني الأربعة الهوائية المرمية عند الأحذية، عدة جلوسها الخارجية؛ الكرسي، منقلة الفحم، وخيشته، الملقط، علبة حليب التموين، مكوّمة فوق بعضها، مثل أشياء فائضة عن الحاجة. والحوش، ما كان حوشًا، لم يعد سوى ممرٌ صغير للعبور، وقد غمرته أدوات البنيان.

كان أبي، بعربية مكسّرة، يصرخ في العمال عبر الهاتف: «تعال بيت ما فيه شينكو، يشوف إنته؟». استغربت أمي: «أول مرة يجون الشعبيات؟». نبهته أن ينطق اسم المنطقة كما هي مكتوبة في لوحات الشوارع: تيماء.

كان بيتنا وسط بيوت متشابهة، لها البنيان نفسه مع اختلافات طفيفة في درجات الألوان، والسماط الخارجية نفسها إلا إن زادت ألواح الشينكو أو نقصت، لا يشبههم إلا بمساحة المئتي متر والطابق الوحيد. كان أبي واقفًا عند الباب الخارجي، تحت المظلة الأسترالية، تلك التي يوم نُصبت وقف قدامها، وقف طويلًا، حتى سألته أمي: «ليش ما حطيت مظلة چينكو؟ أرخص!»، فتلاشت ابتسامته، ورمقها كما لو أنها قد رمته بشتيمة. أما الآن، فالبيت سينوشه التغيير. والشينكو، الذي استبعد طويلًا، سيعود. «انضمينا للجماعة»، قالت الهايشة وهي تنظر إلى أبي بغير تصديق.

لاحت الشاحنة في مقدم الشارع المقعر. لوح لها أبي بيديه، لكن مرور سيارة في الاتجاه المعاكس، جعل الشاحنة تتوقف عن المضي إلينا. عادت الشاحنة وراء حتى اختفت عن وجه الشارع، الذي لا يزال ضيقًا، حتى مع بيوت، مثل بيتنا، تركز سياراتها بجوار الباب عرضًا بدلًا من الطول وكأنها امتداد لجداره. ضيق أبي عينيه مراقبًا حركة العمال، وقد تفصّد وجهه عرقًا، «أستغفر الله»، زفر. تقدم إلى الأسفلت، تحت الشمس اللاهبة، بزّيه العسكري، كأن لا وقت عنده لتغيير ثوبه. كان الموظفون يتساهلون مع خروج أبي بغير وقت الدوام؛ إنه رجل كبير، قديم في مكانه، ولن يصل إلى أقصى من الرتبة التي عليها الآن: وكيل ضابط؛ إنها مبلغ ما يصله أمثالنا.

طوال ليل البارحة، انهمك وأمي يقيسان المساحات. ما كان البيت مطلقًا على مساحة خلفه تمكن من البناء بارتياح، كما في بيت بوجروان الذي يطل على ساحة تزاوية هيات له مد ثلاث غرف جديدة وديوانية من الصفيح. جالا في الحوش، خرجا إلى الزقاق الملاصق لبيتنا، كان الزقاق بمساحة تتيح عبور الدراجات أو أوسع قليلًا، لكن، في زاويته، ينتصب عمود إنارة حديدي شاق. بدا أبي كأنه في حلقة من ذلك البرنامج الذي يدخل صناعه إلى بيوت رثة فيعيدون قولبتها، وبميزانية ضئيلة، إلى بيوت مثالية. مرة، كتب محمد عبر حسابه في تويتر (المسمى ب: إلى متى): أن مقاولي نمط البيوت هذا كانوا يخططون لبناء أقفاص حيوانية، قبل أن يحولوها في اللحظة الأخيرة إلى مساكن بشرية. ضحكنا، لكن أبي

هبّ: «امسحها، امسحها!»، فجمدت ابتسامة أُمي قبل أن تتمها، وانبثقت من عينيها تلك النظرة المرتابة.

عجزا في أن يصلا إلى فكرة، كما عجزا عن مشاورة محمد، حتى والغرفة، المزمع بناؤها، مع حمّامٍ خارجي، تخصه وزوجته القادمة قريبًا.

منذ ثماني سنوات كان محمد كذلك، وحتى عقد قرانه -اللحظة التي راهن فيها أبي على تغيير محمد- لم تحوّل به شيئًا. في ذلك اليوم؛ يوم جلسة المحكمة، كان أبي مستيقظًا منذ شرقت الشمس، ربما لم ينم يومها، كان يفتح باب غرفتنا كل حين، فيغمرنا نور الصالة، يطل إلى محمد النائم، كأنما ينازع رغبة في إيقاظه قبل الأوان. حين صارت الساعة الثامنة، أضاء أبي أنوار الغرفة. «توّ الناس»، قال محمد. «لأ، مو تو الناس»؛ ربما تعطل السير إن لم يذهبها باكراً فتفوتهما الجلسة، ربما استجد شيء في ملفاتنا قد يعطل الأمر برمته فيضطران إلى مراجعة الجهة المسؤولة عنّا والعودة ثانية إلى المحكمة. تأفف محمد. توجسنا أن يفعل شيئًا. أزاح اللحاف عن جسده، ونهض. جلسا، في السيارة، متجاورين، كما قال أحد إخواني الأربعة الصغار متعجبًا.

في ذلك الصيف، كثيرًا ما ردّد أبي، كما لو كان مدهوشًا لقدرته المفاجئة في صياغة تشبيه ما، إن إتمام أي أمر يخصنا يشبه أن يتوجب عليك إجراء مكالمة عاجلة، بينما شحن بطارية الهاتف لا يتجاوز الـ١٠٪؛ لا أحد يستطيع تخمين ما سيحدث حتى في اللحظة التي بعد ثوانٍ. لذا، علينا أن نكون متأهبين دومًا، مثل طليعة جيش. ثم يرمقني؛ «سمعت عبود؟».

حتى هو، لن يعي ذلك، إلا بعد فوات الأوان.

كنا نترقب عودتهما، وكل الاحتمالات، مهما بلغت سوءًا، دارت في رؤوسنا. قال ناصر، وقد كان يتمدد أرضًا في الصالة، في يده عبوة قهوة من ستاربكس، وحزام الديور المقلّد يلتصق في بنطاله: «شكله زواج مخافر»، فأدارت الهايشة رأسها نحوه: «وجع! يا قليل الأدب!». تساءل: «عجل ليه محكمة؟». لم يكن عقد قران محمد مثل أية مناسبة ألفنا رؤيتها. في

زيجات أقارب أصدقائنا، والناس الذين نتابع تغريداتهم في تويتر، نرى المأذون يقدم إلى الديوانية، حيث لا نملكها ولا أهل العروس في بيوتنا، فيوقّع المعرس على وثيقة الزواج، وتلتقط له صورة نتداولها في الواتسآب وتويتر وسناب شات وسائر البرامج، مكتوب أسفلها: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، تم عقد قران أخي فلان.. بلا محكمة أو غيره، وهذا ما سيحاول ناصر فعله، في حين سيصوّر محمدًا بعد رجوعه، مضيفًا على الصورة تعديلات وقصًا حتى تبدو مجتزأة من ديوانية. قلنا لناصر إن هؤلاء البقية. نحن لسنا مثل البقية. وكان هذا ما يعجز عن فهمه؛ كيف نكون بخلاف البقية؟ لكن محمدًا، تقول أمي، أحسن حالًا من جدنا عجيل، حيث استحال عليه، في زواجه الأخير، أن يخرج عقدًا رسميًا، فاضطر إلى أن يحرر عقدًا عرفيًا، بين شيخ دين وشاهدين كي يكون زواجًا شرعيًا، قبل أن ترفع الفتاة، التي أضحت امرأته، دعوى إثبات زواج في المحكمة، فيصير زواجًا رسميًا بحكم القانون، وتسكت أمي هنا؛ كأننا لا نعرف تنمة الأمر؛ حضور الفتاة مع ولي أمرها والشاهدين إلى المحكمة، إقرارها بحصول واقعة وكذا، فيحكم القاضي لهما بالزواج.

وفي لحظة نادرة، دخل أبي ومحمد، متجاورين ومبتسمين، وكان صوت الشيلة الغنائية يدوي من مكبر الصوت؛ يا عسى مبروك عرس الأصيل ابن الأصيل، قذفت جدتي حمضة الحلويات في وجهيهما، حبوا إخواني الأربعة يلتقطونها، كنا نحضن ونقبّل، وأمي تدفعنا بعيدًا بينما تبحث بعينيها الملتمعتين عما بين يدي محمد وأبي، رفع أبي وثيقة الزواج عاليًا كأنه ممسك بكأس بطولة، لوّح بها هايرًا إياها وفق الإيقاع، قبضت أمي على الوثيقة لاهثة كمن ركضت في سباق مئة متر، مسحتها بعينيها إلى آخرها، وحين تبينت الختم زغردت -كما فعلت، بعدها بأيام، بشأن شهادتي- رقصت في وسط الدائرة، وضحكت حتى بدا الشرخ في خدها مثل ثنيات الوجه حين تتسع الابتسامة، رفعت جدتي حمضة طرف شالها عاليًا، هزته مثل مروحة تماشيًا مع النغمات، ورقّصت كتفيها، وانتبذت مريم جانبًا، تصفق وتبتسم، كأنها تخشى أن ينتبه إليها محمد إن تقدمت خطوة فيصرفها، وبقي وجهه جامدًا، لولا خيط ابتسامة وجدت مسارًا إلى طرف شفتيه، كان يتلقى تبريكاتنا كما لو كان عرس ابن الجيران.

في آخر المطاف، قرر أبي أن يتشاور مع العمال. سألت الهايشة: «ليش محمد ما يأجر شقة برّا حاله حال باقي الناس؟». ولم يصحّح لها أحد، مثلما لناصر، أننا لسنا مثل بقية الناس، البقية الذين تصرف لهم الحكومة بدل إيجار، كما قال أبي. همّت أن تقول شيئاً لكنها لمحت خيال محمد يقترب، فسكتت.

منذ شجارهما الأخير، في الأيام التي كنا ننتظر فيها صدور الموافقة على زواجه، وكانت أمي تجفل كلما جالس محمد أبي أو مريم، كلما خاض مع أحدهما حواراً مهما بدا هادئاً؛ إذ نهايته معروفة سلفاً، تحاشى محمد والهايشة بعضهما بعضاً. كان ذلك حين تعذّر على الهايشة تسلّم شهادتها الجامعية، فطفقت تبحث، بإصرار غريب، في المجالات الإعلانية وتطبيقات الإعلانات في الهاتف، عن أيّ وظيفة بلا مؤهلات، كُنا نحسبها تمضي وقتها الراكد أبداً في البيت، كأن تمرّ على الإعلانات وتقرؤها: «مطلوب موظفة تجيد الطباعة على الكمبيوتر، بدوام ٩ ساعات، إجازة يوم واحد في الأسبوع، راتب ١٥٠ ديناراً، شاركت في بناء الأبراج، واستشهدت مرة في الانتفاضة، ومرة في الغزو، وعندها صورة مع جمال عبدالناصر»، ثم تضحك ونضحك، حتى عثرت، أخيراً، على وظيفة. أقسم محمد، حينها، أن يفسد كل شيء، وتعلقت أمي بردن ثوبه، تستحلفه بالله أن يكف. لكنه، لحسن الحظ، لم يفعل شيئاً. كنا نضحك من مخاوف أمي ومبالغاتها، وكانت تستنكر: «نسيتموا؟». تذكّرنا حين جرب أن يعمل مندوباً لتوصيل طلبيات قبل فترة قريبة؛ إذ عاد، سريعاً، في يومه الأول، وفي صندوق سيارته أربع طلبيات. لقد قرر ألا يكمل العمل، وإن كانت الشركة تحرص على أغراضها، فلتمر وتأخذها منه. قال أبي إن إقامة محمد معنا مؤقتة. تأففت الهايشة؛ «يا هالمؤقت اللي ذبحتونا فيه، كل شي مؤقت!». كانت سنوات قليلة، قبالتنا، ليُحال أبي على التقاعد، فيسلّم البيت الذي نسكنه، قرابة الخمسين عاماً، إلى الحكومة. هزّ أبي رأسه؛ «شدوا حيلكم معاي، والله يكتب لنا»، ثم نظر إليّ، كما تنظر الحشود في الأفلام، قبل حلول الخراب بثوانٍ، إلى البطل الخارق.

انتشر والعمال في البيت، بحثوا عن أي مساحة في ذلك البيت المستغلّة كل زواياه إلى الحد الذي جعلنا نستغني عن فكرة الديوانية، ونضم جزءاً منها إلى غرفتنا -نحن الأولاد -

وجزءًا آل غرفة لجدي عجيل، حيث مات فيها حين سكنها مع آخر زيجاته. وبعد موته، هدمنا جدار غرفته لتنتفح بعض مساحتها على غرفتنا، وسددنا التوسعة بحائط جبس بورد سرعان ما تقشر طلاؤه، في حين جزء مساحتها الآخر صار مخزنًا، كان أبي ينز عرقًا، وكلما همّ بالكلام قاطعه بوق سيارة تريد العبور، فيتمتم: «الله ياخذكم»، فيركض العامل، يسير بشاحنته رجوعًا، ثم يعود. مرت سيارة كورزلاً لحسين، ابن جيراننا، رفع يده ملوحًا بالسلام، فعلت المثل. كان يلبس زي طبيب الأسنان أسود اللون. بعد خمس سنوات سأكون مثله. لكنني لم أسأله بعد عن الدراسة في الإسكندرية، ولا عن الطريقة التي سنقدم بها أوراقنا. «استغل الوقت»، رن صوت أبي في رأسي.

بدا ألاً حل. «عادي يُّبه»، قلت، «هذا بيت أبو ناصر، لوحة شارع النجاشي كلها داخل بيته، نسيت؟». فوقف يحدق إلى عمود الإنارة.

لا، قال أبي. نعم، قالت أمي. لن نضمن ألا تحدث لنا البلدية مشاكل، قال أبي. لن يهتم أحد بهذا المكان، قالت أمي. ما أدراك بذلك، سأهاها. منذ متى اهتم بنا أحد هنا أصلاً، سألته. لا تدرين ما الذي سيفعلونه فجأة، أجابها. انظر إلى البيوت التي حولك، أجابته. صفق أبي بيديه مفكرًا، ووقفت أمي عند رأسه. «ما عليّ ولا شكوى، ملفي لين اليوم نظيف»، قال أبي. «بيحاسبونك على شبة مدفونة بين الخرايب؟ شوف البيت، من سكناه ما حطينا فيه قطعة كيربي وحدة، لين تكودنا فوق بعض، تظن هالكلام مسجلينه لك ميزة بملفنا؟ احنا المستضيقيين يا ابن آدم»، قالت أمي. وكما لو أنه مقبل على تنازل سيقضي على ثروته، نظر إلى أمي. وكما لو أنها تسأله عما جناه من ذلك الحرص كله، نظرت إلى أبي.

ثم جاء العمال بأدواتهم.

كانت جدتي حمضة تخرج إلى الحوش، برقعها مسدول فوق وجهها، تخزر بعدائية العمال الذين يلّمون قطع الصفيح، ويصنعون منها حوائط الغرفة الجديدة. وفي الليل، حين يمضون، تجلس بين أدوات البناء في ما بقي من الحوش. تناديني لأخرج، وإن لساعات، عدتها المبعثرة في نواحي المطبخ.

قبل أن يجرف البناء قعدتها، في آخر أيامها في الحوش، كانت حماستها قد خفتت، كأنما قد اكتشفت أن الحال واحدة؛ إن تطلّعت بالنجوم، أو إن استشعرت الجوّ. صارت تغفو وذقنها يسقط إلى صدرها، فتصحو مذعورة كأن شيئاً فاتها، ثم تعاود التحديق إلى السماء، قبل أن تسرح في غيرها، حتى غدت مثل بواب عمارة، وما عاد ينقصها غير كأس الشاي. يزرنها الجارات، يجالسنها، إذا ما طاب لهن الجوّ، في الحوش. ووقتها، لا تلفتها النجوم أبداً. وإن لمناها لتخشيبتها الطويلة تلك، تهز رأسها قائلة؛ «قريب إن شالله أخلص»، أو: «راح الجثير، وما بقى إلا شوي».

لكن، الآن، لم تعد قعدتها تطول. كانت ترمق المكان المزدهم بالأدوات، المشبع برائحة الأصباغ، ثم تقوم عنه. تشتم وتسب طوال اليوم. «هوّ الحوش شكبره عشان تسوون بيه غرفة؟ على قولتكم البيت قفص، چا وين بعد؟» وهمست أُمي تضحك: «إذا احترقت غرفة محمد، ترى بسبّتها». تركناها تلعق جراحها بنفسها، وتفعل أكثر ما نبرع فيه: التعود. لن يعجزها أن تتعود؛ إذ لطالما فعلت وفعلنا.

بدءاً من الزقاق، مروراً بجزء من المساحة الخارجية التي تقف بها سيارتي البيت أسفل المظلة الأسترالية، وانتهاءً بجزء من الحوش ليتبقى منه -أخيراً- قدرًا ضئيلاً أشبه بمسافة عبور من الداخل إلى الخارج، كانت غرفة الصفيح الجديدة مع حمّامٍ من الصفيح بالقرب. أضحى عمود الإنارة الشاهق ضمن حدود بيتنا. ولتدخل الغرفتان إلى مساحة البيت فقد هدمنا سوره، الذي راحت معه صناديق الجرائد، وصار السور الجديد قطعاً من ألواح الصفيح. لقد هاجمنا الصفيح.

جال أبي بصره، طويلاً، في سور الصفيح الجديد وفوقه المظلة الأسترالية، في شكل الحوش وقد استضاع، في عمود الإنارة الذي ملكناه. كان مثل حلاق ينظر إلى رأس زبون بعد أن وقع بخطأ جسيم لا يصلحه إلا قصّ الشعر كاملاً. ثم أرسل عينيه نحو البيوت المجاورة، المكتظة حتى آخرها بالصفيح، كأنه يريد منها تربيتة على كتفه.

لم تبدُ الغرفة الجديدة، التي لها نافذة تطل على الخارج، سيئة، وإن بدت جدرانها لا تحفظ صوتًا. كانت تلك أول غرفة يحظى بها واحد من إخواني لوحده، بعد أن كنا، نحن السبعة أولاد، في غرفة واحدة ليس لها -مثل بقية غرف البيت- نوافذ تنظر إلى الشمس؛ غرفة مكتومة الهواء كأنما داخل كيس مغلق، تتوزع فيها أسرَّتنا القابلة للطي على نحوٍ يشبه مسار ماء اندلق فوق سجادة، في حين امتياز السرير الخشبي، القائم في زاوية الغرفة، لمحمّد، والذي لا يتسق ميعاد نومه معنا؛ ربما ظن في ذلك خدشًا لرجولته، ولترابية سنّه بيننا. لكن الآن سيصفو لأحدنا سريريه الخشبي، وسنطوي واحدًا من الأسرّة للأبد لتتسع الغرفة.

بيد تتكئ على باب الغرفة، ويد تغطي فمها بشيلتها، مسحت جدتي حمضة المكان بعينيها. وبقيت، طوال الليل، تخرج إلى زاوية الحوش، تفتح باب الغرفة، لا تقول شيئًا ولا تسبّ. في النهار التالي، أعادت عدتها إلى ما بقي من مكانها القديم، ثم شرعت باب غرفة الصفيح، أمعنت النظر فيها ثانية، واستدارت إلينا، قالت:

«أريدها».

حاولنا أن نثنيها عن قرارها. سنوات، حتى وجدّي حيًّا يسكن في بيت آخر، كانت معنا، تتقاسم الغرفة مع مريم الهايشة. وحين سُحب بيته إثر تقاعده، ولم تكن مكافأة نهاية الخدمة كما تصوّر، نظرًا إلى من في مثل سنّه وعمر خدمته، لتكفيه لشراء بيت شعبي صغير يضمّه بعيدًا عن حمضة، بيت يتمرّغ فيه بنعيم زوجة جديدة، عاد إلينا، تتبعه زوجته، ولم تفكر جدتي في أن تلحقه إلى غرفته، ربما فكرت، لكن الوقت لم يسعفها. رجاها أبي: «راح يذبحج البرد بالغرفة، ردّي للأولية»، «على الأقل تكونين يم غرفتي، وكل ساعة أطل عليج». كبحت أمي ضحكتها متممةً؛ «القصر الأحمر هذا مو بيتنا». ولم نتخيل أن بعضًا من رجاءات أبي سيتحول إلى حقيقة فيما بعد. رفضت جدتي حمضة كل التوسلات، قالت: «محمد يروح غرفتي. عريس وينام بغرفة چينكو!». ثم لطمت صدرها: «سودا بويهج يا حمضة!».

قال محمد: «اتركوها على راحتها»، ومضى في طريقه، فاستوقفه أبي سائلًا: «شنو يعني اتركوها على راحتها؟». أجابه: «يعني على راحتها، أنا أخذ غرفتها، عادي، ما فرققت». وبمثل تلك النظرات في شجاراتهما القديمة، حدجه أبي.

لقد وقع المحذور، قلنا.

كانا واقفين وقوفهما القديم ذاته، في ذلك اليوم قبل تسع سنوات، حين أسرت الهايشة بأمر عثورها على حساب مستعار في تويتر لمحمد، يحمل اسم: إلى متى، كاسم أغنية لأصالة صدرت في العام نفسه لتأسيس الحساب: ٢٠١٠، بصورة ملف شخصي لكاسترو يمّج سيجارًا في زاوية فمه. قرأت الهايشة التغريدات، فسحبت أمني هاتفها لعلّ في الأمر خطأ. مدت جدتي حمضة رأسها؛ ورّيني إياهن، زجرتها الهايشة: «شتبين؟ تعرفين تقرين يعني؟»، فتمتمت جدتي: «الله لا يطّيح مسلم بحلقج». ومضت في رؤوسنا، ونحن نقرأ تغريداته، صورة واحدة: محمد وهو يُسحلّ إلى السجن. لم يكن، أبدًا، مثل حساب ناصر؛ حيث صورته بغترة وعقال وساعة يد أريد لها أن تكون بارزة، بملفّ تعريفى بسيط: دار الكرامة وبجانها صورة مصغرة لقلب أزرق وأخرى للعلم، بتغريدات فيها أشعار، إعادات تغريد لتغريدات أصدقائه، حكم يتناقلونها على شاكلة: الهجر بالهجر والبادي أقسى، تهنئات لمناسبات أصحابه وتعزيات، وفي الأعياد الوطنية أبيات في حب الوطن. جرّه أبي بياقة دشداشته مثل رجل مباحث، صرخ: «إنت ما تتوب يا كلب يا ابن الكلب؟». صاح محمد في وجهه، فجاءت جدتي تركض، تلقي نفسها بينهما، تحلف وتجرّ واحدهما عن الآخر، تطاول الصراخ حتى صفعه أبي، فخرج محمد من البيت يسبّ ويلعن. كاد أبي يتبعه، لولا أن جدتي اعترضت دربه ودفعته بكتفيه. «الله عليكم، أرد أحد منكم يفهمني شصار بينهم؟». كنا نستند إلى أبواب غرفنا، لا ننطق بكلمة، كأننا نشاهد أحلامنا المفترضة تتبخر، وبفضل محمد، في السقف.

أزاح أبي عينيه، ربما أدرك أنه لن يخرج بإجابة من محمد، كما لن يعرف، أبدًا، من أين له بكل هذا الجليد الذي فوق قلبه.

نقلنا سرير جدتي حمضة، مدفاتها الكهربائية، صندوق أدويتها، وخزانها الصغيرة التي حوت أغلبية رفوفها حاجات عمتي وضحة منذ عشرين عامًا، منذ وزوجها وابنها الصغير آنذاك، غادروا البلاد، بلا رجعة. اتجهت إلى غرفتها الجديدة تتأبط صندوقها الذي لم تتخل عنه أبدًا، صندوقها الصغير، مقشر الحواف، بني اللون، وقد طُبع بأعلاه رسمة لعدة أزهار.

حين سقطت، من بين حاجاتها، بطاقتها الأمنية (١) في منتصف الدرب، هبَّ أبي كمن عثر على لقية ثمينة يخشى ضياعها يدهسها في حجرته، ريثما يجمع بطاقتنا جميعًا ليذهب بها، قبل صبيحة يوم العرس، إلى الجهة المسؤولة عن تجديداتها. ومنذها، على الأقل في الشهرين القادمين، لم نرها.

صارت جارة للسماء، يكفيها أن تشرع باب الغرفة حتى ترنو إلى النجوم، كأنها ستتدلى إليها مثل عناقيد، فتصير البشارة وشيكة، وتراها رأي العين -حتى وهي تجهل ما عليه شكل ذلك الاقتران، وهي تجهل، رغم محاولاتها لفهم ذلك، كيف سينبئ ذلك بالتبدل حال أن تراه- وحينها، كل من كذبها سيقف قدامها صاغراً. وهذا ما حدث، في منتصف تلك الليلة بعد العرس مباشرة، والتي انقلبت بعدها حياتنا.

خلف انتقالها أزميتين. قبل تشييد حمام الصفيح، كان يتوافر في البيت حمامان. يقع الأول في الصالة، حيث يشترك فيه مع جدتي، محمد، أنا وناصر، الأربعة الصغار، والهايشة. الثاني، في غرفة والدي، تدخله الهايشة كذلك إن غاب أبي، لأن: «حمام الصالة يلوغ الجبد، وريحة البوالة اللي فيه تبطّ الراس». فكرنا، خفية، أن ليس معقولاً انضمام شروق، زوجة محمد، إلى حمام الصفيح في الحوش، في حين غرفتها في الداخل. سئُضطر إلى أن تستحم في أواخر الليل وبدايات الصباح، وستهرع إلى الحمام والفوطة على كتفها والشيلة فوق رأسها مثل نَشْالة. ولو اشتركت في حمام الصالة معنا، فإني وأخي شابان، سيُخرج ناصر من حمل فوطته في أي وقت يشاء؛ سيُكشف أمر استمنائه، وهذا آخر ما يحتاجه ليتعاضم شعوره بعدم التقدير والمهانة في بيت، فضلاً عن ذلك، لا يقدر اختياره للتخصص العلمي، اللا طائل تحته، بعد أن سرقت منه طموحه بإكمال الدراسة في الخارج.

قال: «مو كيفها، خلّوها ترجع غرفتها، انجّت العجوز». رفست أمي رجليه، كيلا يسمعه أبي، غامزةً له؛ اصبر يا غبي. لم يجد أبي غير حلّ واحد؛ نتحول إلى حَمَام الصفيح في الحوش، ونُخلي هذا لمحمد وزوجته، وأيضًا الهايشة.

حلفت الهايشة بالذي رفع سبغًا وأنزل سبغًا ألا تنتقل إلى غرفة الصفيح مع جدتي، شبكت ذراعيها، غالبت دموعها، «قسم بالله ما أنام هناك. هذي آخرتها؟!» انخرطت في مونولوج عن العيشة في هذي الخرابة، عن الناس الذين استأجروا بيوتًا في مناطق مثل جنوب الجهراء وجابر الأحمد ورأوا دنيا غير هذه، اشتكت من جدتنا التي لا تنام، وتظل ليلها كله ساهرة، إن لم تكن في الحوش ففي الغرفة، تنبش الدولاب، ترفع صوت الراديو تحينًا لأذان الفجر، وتحرمها من التكييف في الصيف، ثم إن: «مو كافي عمري ٢٥ سنة، وأنا البنت الوحيدة بهالبيت، ولا عندي غرفة بروحي».

زمجر أبي: «خلاص، خلاص». طفق يفكر، ويفكر، حتى استقر على أن يؤول المخزن الصغير إلى غرفة للهايشة؛ فهذه الكراكيب لا يبدو أن أحدًا بحاجة إليها. قالت أمي: «بس لأ، فيه أغراض وايدة أحتاجها»، فزفر: «فرغي اللّي تبينه، وفكّينا يا أم محمد».

فُتح باب المخزن المظلم. كان مكانًا تخوّف به أمي إخواني الصغار إن اقتربوا منه، تحذّروهم إن لم يكفوا فشحّ جدي الميت سيتراعى لهم، وكانت الحكاية بأعينهم مقنعة؛ إذ نام جدي، في هذه البقعة، ثم لم يستيقظ.

تلك الظهيرة لم ينسها أبي، حين طرقت زوجة جدي باب غرفته طرقات مثل ديبب النمل. كانت في عمر مريم أو أصغر قليلًا. تلبس دراعة واسعة، كأنما استعارتها من دولاب أمها، ما أضفى عليها مظهرًا غريبًا. وقفت بعيدًا عن الباب، كأنها بعد طرقه ركضت. تأرجحت في وقفاتها، تفرك أصابعها بعضها ببعض، وحدقتها فارغتان. حين خرج لها أبي، أشارت بأصابع لم ترفعها إلى الغرفة. لم تنطق، فتوجس أبي. دخل إلى غرفة جدي، فوجده نائمًا فوق مطارح من السدو، ملتحفًا ببشته، متلثمًا بشماغه الأحمر. لساعتين كان على هذه الحال،

وكانت زوجته متصلبة في مكانها؛ لم ترَ من قبل مشهدًا مماثلًا، بل إنَّ حياتها، منذ وقفت في المحكمة لأجل أن تكون زوجة لجدِّي، لم ترَ شيئًا يماثلها.

صعدت أُمي سلَّمًا حديدِيًّا، واستبدلت باللمبة أخرى أنارت المكان. راحت، طوال يومين، تتربع في أرض المخزن، تهطل عرقًا، يتبلل شعرها، والندبة في خدها تبدو مثل هوة، تفلِّي الحقائب والأكياس المكدسة والحاجات التي لم يسعها المطبخ فدُفنت هنا، تشتم أُمي، جدتي، العرس الذي سيقودنا إلى الفقر. «ولدج هذا يلعب لعب»، قالت لجدتي التي اقتعدت كرسيًا بجانبها مثل مراقب من البلدية، «أول الفلوس راحت على التقويم اللِّي بحلق ناصر، وعقبها مهر الست آلاف والشبكة، وغرفة مريم اللِّي مدري من وين طلعت لنا، وغير دراسة عبود اللِّي بالطريق، وقاعة العرس، وفلوس البيت. عليج الله خالتي هذا مو لعب؟ خليف يظن طايحين على بنك ولا الحكومة تمشي لنا فلوس؟» صاحت بها جدتي حمضة: «دخيل الله افرحي. چا حتى الفرحة نحرم روحنا منها! افرحي ويصير خير»، وكانت عينا جدتي إلى الحاجات الخارجة من ظلمة المخزن.

اكتشفت أُمي أغراضًا كانت قد نسيتهها. لوحت بطقم مطارات لا يزال في علبته؛ «يوه هذا وين طلع؟ والله إني ناسيته. العفو حظي، يا أنا خرّفت، يا ماكو مناسبة حلوة مرّتنا». شهقت حين عثرت على عدة درّاعات وعاودت قياسها على جذعها. «تردّينهم؟» سألتها جدتي حمضة، التي كلّما شدها غرض ما، قالت لأُمي اتركيه، إذ ترفعه إلى ما فوق دولابها، كباقي الكراكيب والألعاب المكسورة والثياب التي قصرت على قاماتنا، لتتصل بعد فترة بواحد من سائقي شاحنات نقل الأمانات، فتحشر هذا كلّه في علب كرتونية هشة ترسلها إلى كندا أم النخل. في القاع، ثمة حقائب سفر جلدية، هزّت أُمي يديها ضاحكة لمّا أخرجتها: «موت يا السفرات الحين. من حيث قطعنا المطارات تقطّع»، نبّتها الهايشة: «خَلِّي وحدة»، فضحكت أُمي: «ليش بالله؟ طحتي على جواز ولا طلعت لچ طاقة الإخفا؟»، «نسييتي عبود؟» فتذكرت أني سأسافر في آخر الصيف. ابتسمت لي ملتمةً عيناها ثم تنهدت. أمسكت بثلاثة كتب كانت تخص محمدًا، رواية اسمها الصهد، وآخر له غلاف مقوى لصورة ماركس، وثالثًا ضيّقت عينيها تتهجى اسمه: سأخون وطني. نفضته عن

يدها كأنه جمرة، وكَمَّت على غلافه: «ناقصينك! ضاع ويهك!»، تركته إلى يسارها في صف الأشياء التي لا تحتاجها، فيما اليمين كان للتي تحتاج. في آخر اليوم، كان يسارها شبه خالٍ، بينما تطاول يمينها مثل تلٍّ صغير.

«إنتي هبلّة؟ علامج؟»، سأها أبي.

بحثت عن أيّ مكان خالٍ، فوق الدواليب وتحتها، داخل أيّ فسحة من الجوارير، تدفن فيه الأغراض فوق بعضها، تدعسها فوق بعضها، ترفسها لتستقر في محلها، حتى خلا المخزن، وتراكمت الأشياء الخارجة إما إلى شاحنة اللجنة الخيرية، أو فوق خزانة جدتي حمضة.

وقفت جدتي بباب غرفة الهايشة إذ انتهت. طوال الأيام الماضية، كانت الهايشة تحمل في يدها ظرف المئة وخمسين ديناراً؛ راتبها الأول، وقد طلبت من أبي أن يمدها بخمسين أخرى. كانت عينها متوهجتين، كلما مررنا بعد عملها إلى محلات أثاث بالقرب، تفكر في تصميمات واعدة ستجعل الغرفة: هادية وسيمبل. أنعمت جدتي النظر بالغرفة، وكمن تتشقى قالت: «يا يبه! هاي سجن!». كانت الغرفة، المصبوغة بالأبيض، والتي كأن زلزلاً كَوَّم محتوياتها على بعضها، قد اقتصرت على سرير ودولاب وتسريحة صغيرة قال ناصر عنها: «شوفها چنها لعبة بيت عرايس»، والهايشة تزفر؛ مؤقتة. كلما علّق أحدا ردّت: مؤقت يا بشر. كانت تستند إلى الباب، تنظر في عيني جدتي، عيني ناصر، أعيننا ونحن نتأمل الغرفة، بغير النظرة التي طالعت فيها أثاث المحلات، قبل أن تمسك بملصق السعر على قطعة ما، وتقول: «يا حظك، بكره بتصير طيب..». مسحت أمي على ظهرها، قالت: «إن الله يسّر بيتنا الجديد، ولّا بيتج لّمّا تعرسين، راح تكون أكبر وأشرح منها ألف مرة. لا وتأثثينها من صفاة هوم بعد». أدارت رأسها إلى أمي: «لأ، من إيكيا أحسن»، ثم صفقت الباب بوجوهنا.

ولم تصفُ القعدة كلية لحمضة، إذ بعد ربكة البنيان، جاءت أضواء الزينة.

كان العرس مسافة أيام، وقد مُدّت أضواء الزينة على أسلاك من سطح البيت إلى سوره، حتى بدت مثل سقف من العريش يغطي سماء الحوش. ولساعات كان النور يحرم جدتي

حمضة من التحديق إلى السماء. بعد أن تُطفأ الأضواء، وقد اقترب الفجر، كانت تعود إلى قعدتها.

وفي واحدٍ من تلك الأيام سألتها: ما الطائل من وراء انتظارها للربيع؟

كانت، قبل الزينة حتى، وفي بيت لا يكاد يهدأ، لها مواقيت لجلوسها. وقت المدارس، تجلس بعد منتصف الليل؛ إذ سنكون نيامًا حينها. أما في العطل، فتختلس ساعة أو بضع قبل صلاة الفجر؛ لحظات قليلة لكنها تكفي. فيما مضى، لم يكن متاحًا امتياز هدوء البيت في الصباح، إذ لم نكن، أنا وناصر والأربعة الصغار، عدا الهايشة، قد انضمنا إلى المدارس بشكلٍ مستمر.

في كل عام، كان أبي يُجري قرعة، يختار من خلالها جزءًا منا، بعدم حسابان الهايشة؛ «أختكم الوحيدة هذي، حرام»، ثم يسجلنا في مدرسة خاصة، بينما يظل الآخرون في البيت، بانتظار العام اللاحق، حيث تتبدل الأدوار. وكلما جاءت أمي بمولود جديد تعسّرت القرعة. ما استمر الحال طويلًا، لا، لقد استمر؛ على الأقل بالنسبة إلى محمد الذي أنهى الثانوية، ومريم التي أوشكت، قبل قرار قبولنا نحن أبناء العسكريين منّا في المدارس الحكومية.

عجزت أمي عن تصديق القرار. سنوات والجملة تتكرر ولم يتغير شيئًا فلم الآن؟ وحتى بعد مجيء أبي بأوراق قبولنا، بعد تصديقها في المنطقة التعليمية، ارتابت، وأطلت من عينيها تلك النظرة التي جعلتنا نتوجس حتى من التخطيط ليومنا الدراسي الأول. قال ناصر إن حارس المدرسة سيهشّنا ملوحًا بالعصا. أحس واحدٌ من الأربعة الصغار بأن الناظر سينادي على أسمائنا حين ندخل إلى الصفوف، ثم يتصل بأبي، ونعود من حيث جئنا. صحّح له أخونا الثاني: «يا حمار، الحين يدرسونا أبلات مو أستاذية»، فابتسم معتذرًا؛ «إي صح نسيت». كل خيالنا، حتى أكثرها جموحًا، استمددناها من ذاك المشهد في مدرستنا الخاصة؛ حيث نقف في طابور الصباح، وعبر مكبر الصوت تنادي الإدارة على ثلة من أقراننا،

فيقفون في الساحة، ونمشي نحن إلى فصولنا. كنا نلتفت نحوهم مطمئنين إلى نجاتنا من مصير مشابه؛ لقد دفعنا رسومنا قبل أيام.

«هذي إشاعات واتساب»، قالت أمي.

أواخر الثمانينيات، في الوقت الذي انتقلت فيه أمي إلى صفها الرابع ثانوي، واستعدت للتخرج، جاء، بغتة، قرار بعدم قبول كل من لا يحمل جوازًا في المدارس الحكومية، حد أنها لم تصدق الأمر. ذهبت إلى المدرسة، وبحثت عن اسمها. رأت، في اللوحة المعلقة قريبًا من المدخل، أسماء صديقاتها، وقد اجتمعن، مثلما تمنين أخيرًا، في فصل دراسي واحد، وكان اسمها وحده من غاب. تعيد أمي تفاصيل ذلك الصباح، تقول إنها تصببت عرقًا من مرأى صديقاتها يشاهدنها، و: «الحمد لله إنني ما شفتهن بعد هاليوم كلش».

أرادت أن تصدق حقيقة عودتنا، أن تفهم الكيفية التي جاء فيها القرار، كما تريد أن تفهم ضده؛ الذي صدر قبل ما يقارب الثلاثين عامًا؛ سنة تخرجها المفترضة. سألت: «شلون؟». وأجابها أبي: «عن الخبال عاد»، مردفًا أن تذهب بنا إلى السوق، لشراء ملابس المدرسة. لم نعد نرتدي زي المدارس الخاصة، خلاص.

من خبر انتقالنا، فهمت جدتي حمضة ثلاثة أشياء: تخفف أبي من رسوم دراستنا؛ وإن مدّه الصندوق العسكري بجزء من المبالغ، سنداوم جميعًا في وقت واحد، وسنكون بدلًا من المدرسة الواقعة في المنطقة التجارية؛ بين الأسواق والبنائات السكنية والتجارية، في أخرى قريبة من بيوتنا حد الذهاب إليها مشيًا. قالت: «هاي ينراد إلها لهولة». هلهلت، قبل أن ترفع الهايشة سبابتها: «قولي بباب، لولشة، أو حتى زغروطة ياختي! إلا هالكلمة؟» لأننا في الكويت، لسنا في سوق الشيوخ.

تكدسنا في سيارة أمي، وقتما كان بوسعها أن تقود قبل أن تتخلص منها بحجة أن رجليها لا تعينانها. قدمت جدتي حمضة، برقعها فوق وجهها، والشال بارز من تحت عباءتها، لتفتح باب المقعد الأمامي. ومريم، التي تجلس فيه، سألتها: «خير؟». أجبته: «أرد أروح وياكم

بعدا!». نزلت مريم، صفقت الباب عائدة إلى الداخل، لحقتها أمي تحاول جرّها، طفرت الدموع من عينيها، تلوّت في وقفتها: «والله والله ما أروح وهي معانا. راح تقصّ وجيها بالسوق!». كانت أكثرنا تشوقاً لشراء الزي المدرسي الحكومي، بعيداً عن الثوب الزيتي المدموغ في ياقته شعار المدرسة مثل ختم سجن، حسب قولها. وليذهب حماسها إلى الجحيم، إن كان الناس سيرونها مع هذه العجوز المخبلة بالوشوم التي على يديها.

عصّت جدتي على شفرتها، قالت لولا أنّ الهايشة تشبه وضحة، لشقّت لها حلقتها وكسّرت أضلعها، «وقبر الهايشة!»، ولطالما بدت صفة الهايشة/البقرة، التي اكتسبتها مريم من جدتنا، مناسبةً لها، إذ لها، مثل أبي، ظهر عريض بعض الشيء.

كانت الشوارع مزدحمة، تملؤها إعلانات مهرجان العودة للمدارس. في أيامنا القديمة، كنا نكتفي بشراء الدفاتر والمقلمات، في الطابق الأرضي من المجمع إياه. أما طابقه الثاني، حيث الملابس، فلا نقربه. سعدنا، ذلك اليوم، في السلم المتحرك إليه. مشينا مطولاً هناك، نختبر الأثواب الجديدة، تخير إخواني الصغار قمصاناً بيضاً وبناطيل رمادية، وحمضة تتبع أثرهم مثل حارس، تسأل واحداً منهم: «ها حبّوبي قضيت؟» وتذهب إلى الآخر مستنكرة: «هيّ عجة لو ثوب ساعة تطالع بيه؟» وهذا الآخر يصيح في ضجيج السوق: «يّمه وين القمصان البنية؟»، فتترك أمي أخي في قسم الأحذية، تنسرب بين الأجساد، تقرصه في زنده: «قصّر صوتك». أفهمته أننا لم نعد في المدارس الخاصة، فردّ: «بس هذا شكله خايس!»، «راح تتعود عليه».

تبعّت أمي حتى قسم البنات. مسحت بعينيها الأثواب الزرقاء الغامقة، الزرقاء الفاتحة، والوردية. توقفنا عند الأخيرة. لم يكن واحداً منها في مقاس الهايشة. استوقفت البائع: «وين ألقى مقاس ٢٤؟ هذا كلّ مال يهال!». إلى جانبنا امرأة، أدارت رأسها إلينا، وقد عقدت حاجبيها: «ما شالله! بنتج كم عمرها علشان تلبس هالمقاس؟». كانت الأثواب الوردية لبنات الابتدائية، الزرقاء الفاتحة لبنات المتوسطة، والغامقة هي ما يفترض أن نبحت عنه. ضحكت أمي بخجل؛ «والله لخبطوني العيال». أنعمت بصرها بالثياب الزرقاء، تلمستها

مطولاً، وشبح ابتساماً في شفيتها. قالت: «ما كنا نلبس چذي بالحكومة». كانت الثياب القديمة بطراز واحد؛ من الابتدائية وحتى التخرج. سحبت واحداً، حاولت قياسه على جذعها، مدت إبهامها ووسطها تقيس ذراعيه، وقبل أن تنزعه من العالقة أفلتت تنهيدة، «يا سبحان الله»، قالت.

في يومنا الأول، تدافعنا في سيارة أمي. كادت تنحرف إلى المنعطف الذي يقودها إلى خارج المنطقة، فزقق ناصر: «هوب يّمه! نسيّتي؟»، «إيي صح»، وأدارت المقود عاجلاً، وبتوتّر من يركب بجانب مدرب قيادة ضحك.

قبل أن أجتاز باب المدرسة، التي أتمّ فيها أبي دراسته الثانوية، التفتُ نحوها. مكثت في سيارتها جامدة، تراقبنا نعبّر. يداها على المقود، ظهرها ممدود إلى الأمام، تنزلق العباءة من رأسها وتثبت على ظهرها، كانت تحاول أن ترسل عينيها إلى أقصى ما يتيحها لهما إطار النافذة. لوّحت لي، وكانت تلهج بشفتيها. حتى حين دخلت إلى الساحة، والتفتُ، كانت لا تزال هناك. لا أدري متى عادت إلى البيت يومها. وقت خروجنا، شاهدتها مثلما هي.

لم تُطرّد، ولم يقف أحد في الطابور لأنه تخلف عن سداد الرسوم. ما زالت المدرسة تحفل ببعض الأوصاف التي ذكرها أبي بحنين؛ بنيانها قديم، يشبه بيتاً عربياً؛ ساحة واسعة، صفوف كثر تحيط بها، لا يتكدس بها أحد. رأينا الكثير من أبناء جلدتنا. كنا أشبه بنزهة عصرية نلعب بها في الشارع، مع أبناء جيراننا، مع الذين نلعب معهم كرة القدم في ملعب مؤجر لساعة، هؤلاء الذين نراهم في الشوارع، مثل أحاديثنا، مثل ألسنتنا، مثل القبائل التي ننحدر منها. إنهم هنا الآن، وبكثرة، ككثرة المدرسين الذين يرتدون الغترة والعقال، لكنهم كويتيون كما يقول ناصر، ليسوا كالذين يرتدون هنا. غزّنتي الصور، ومزّت أسماء أصدقائنا الذين بقوا هناك، لكنهم غير كويتيين، فخجلت من نفسي ومن حماسي.

بعد خروجنا حكينا كثيراً، كأن أشياء كثيرة قد فاتتنا. ظلّ أخي، الذي كان يبحث عن القمصان البنية، يبكي طوال رجوعنا، يريد العودة إلى المدرسة القديمة. رفس بقدميه المقعد الذي أمامه كلما أحس باستحالة الامتثال لرغبته. صفقته الهايشة بيدها، فسكت. كنا

جميعاً نحكي، في السيارة المختنقة برائحة الجوارب الرطبة ونكهات الشبس، يقاطعنا صوته يسحب مخاطه، يكتم شهقة. أمي، في غضون ذلك، تحاول أن تنتبه إلى الطريق، أن تلتفت إليه، تطمئننه، أن تسمعنا، ثم تردد: بعد عيني عينك محمد؛ وكأن أمر الدراسة كان يعنيه. وقتما كنا في مدارسنا الخاصة، وقد أجرى أبي قرعته السنوية، قرر محمد أن يترك مقعده في الجامعة. كان، حينها، في سنته الدراسية الثانية. لا توجد أسباب. قال ذلك دون أية بادرة تضحية ممضة أو ندم. ظلّ يقول إنه لا يريد تخصصاً بعينه، وأن هذا ما لم يفهمه أبي. بعد أن قضى سنة في تخصص الأدب الإنجليزي، قال لأبي، وبنبرة من اتخاذ القرار، إنه سيتحول إلى المحاسبة. وافق أبي بعد طاخ وطيخ. لكنه الآن.. «مجنون إنك؟». قال محمد: «مابي أدرس، مو حاب أكمل، صعب الكلام؟ أترجمه؟». حملق فيه أبي، في ابنه البكر، الذي حين لم تمنحه الجامعة الحكومية مقعداً سارع بأوراقه إلى الجامعة الخاصة، الذي تركه يعبث بين التخصصات. سأله كمن يحاول تأنيبه: «وفلوس الكورسين؟». أجابه: «الله يعوضك فيهم، وبإذن الله أرجعهم لك لا اشتغلت»، فمد أبي ذراعيه صائحاً: «وشنو تشتغل؟ حمالي ولأ بواب ولأ كاشير؟ إنت شفيك؟ مجنون؟ حمار؟ أدفع لك بالكورس..». وثب محمد في وجهه، ظنناه سيضربه، غطى على صوت أبي؛ لماذا يجب أن يكون بطلاً في عيونهم؟ لماذا يجب أن يفعل شيئاً حتى يستحق عليه مديحهم؟ روح ادرس إنك، وقول لهم إنك رجال ونجحت ودرست وإنك بهذا الوضع، تعالوا شوفوني وشوفوا عيالي، بالله ما أستاها؟ صفعه أبي، وبعدد السنوات التي قضاها في الجامعة راح يصفعه؛ مرة، اثنتين، ثلاثاً، ومحمد مسلماً خده.

كانت تلك الليلة، حين سألتها عن الطائل من انتظارها، مكتنفةً ببعض البرودة، رغم أننا في أواخر يوليو. كانت برودة تشبه تلك التي يحس بها شخص محموم. لم تنتظر؟ ها هي تستعيز عن انتظارها بالمدفأة، بالنار، المعاطف والشالات، المسكن الدافئ، فلماذا تتحرق لرؤية الربيع، طالما أن ليس لديها ماشية تتكبد عناء علفها من نبات الأرض، وليست تسكن خيمة في الصحراء حتى تنتظر اعتدال الجو لتنهأ بأيامها.

بدا أنها لم تسمع سؤالي، إذ لم تنظر نحوي. هممت أعيد السؤال، فأسكتتني بإشارة من يدها. حركت يديها كأنها تعني أن الأمر بديهي، أن سؤالي غبي، لكنني حمار لا أنتبه. «ولك النار يجي لها وگت وتنطفي، ووگتها تظل حدر الجو». سكتت. رمقت ما أمامها، وقلبت يديها فوق النار مثل دفوف تُحمى.

ندت عنها ضحكة سريعة، من النوع الذي يرافق ذكرى سيئة بعيدة، تبسمت، قالت: «أول..»، مشيرة بيدها إلى ما وراء ظهرها دلالة زمن قديم؛ الزمن الذي كان فيه انتظارها جارحًا؛ تنصل بالنشرة الجوية، تقيم في الحوش عساها تحس بتبدل قد يطرأ في برودة جسدها، وتطرق باب بوكنعان قبل أن تنهل من سر معرفته. «چان عندي حلال، غنم. انشد هلك عنهم. تدري شصار بيهم؟». من السهل أن أخمن. أكملت: «ما تحمّلوا البرد، ماتوا، لا برسيم ولا مطر».

لم ترو هذه الحكاية من قبل، لكنها، بدت مطابقة لحالها: راعية أغنام، تمسك العصا بيدها، تجوس بقطيعها الأرض، تستشف سحابًا ممطرًا، تنقب في الأرض عن أخضرها، والماشية خلفها في نفوق.

قبل وفاة الحجّي، جدي عجيل، كانت علاقته مع أخيه حمد على ما يرام، قبل أن يُفسدها أبي. لذا، منحها حمد جانبًا ضيقًا من مزرعته الصغيرة في مزارع الصليبية. سورت حمضة ذلك الجانب، اعتنت به، ووضعت فيه ما لديها من ماعز ونعاج وطيّان، مظلمة إياهن، انقاء البرد، بسقف من الصفيح. ما نفعها ذلك، إذ حين تعاود زيارة المكان، على نحو شبه أسبوعي، كانت تجد نعجة نافقة، ماعزًا على وشك، والمواشي الأخرى ترتجف. اشتكى حمد، عم أبي، من عناد الأغنام التي لا تقرب الأعلاف الاصطناعية، وإصرارها على نبات الأرض رغم ندرته.

جلست في مقدمة السيارة الوانيت، تردد؛ يجيب الله ربيع، يجيب الله ربيع. ابن عم أبيك، قالت جدتي، حمل المواشي فوق سطح السيارة، استعدادًا لعرضها على طبيب بيطري. وهذا الأخير، تحلف حمضة بأنه ما عرف علّتهم. فعادت المواشي، إثر ذلك، إلى مكانها.

المواشي التي لا تموت، كانت في زيارة حمضة اللاحقة تضمّر، لا تتحرك، وبرها منفوش، عظامها تلتصق بجلدها من أثر الهزال. كانت حمضة تمشي بينهم، تُلقي فتات خبز يابس على ماعز، وخضار متعفنة على نعجة، تحاول إنقاذ ما تبقى، وحين تخرج، وتغلق خلفها باب السور الواطئ، تنتبذ جالسة فوق طاوقيتين، تبكي حتى يبتل برقعها، «والله ياللني بچيت بچي ذاك اليوم، چئي بنية مضيعة أمها بالسوق»، قالت.

أضحى المرعى، في زيارتها الأخيرة، شاسعاً رغم ضيقه، وبقيت نعجة وحيدة، متيبسة، تلبد في أقصى السور. في حين تروي هذا الجزء افتعلت جدتي حمضة نبرة درامية؛ نظرت إلى ما أمامها، تغضن وجهها، رفعت كفيها، واتخذ صوتها إيقاعات عدة في كل كلمة، كأنها تعيش المشهد من جديد: «رحت أصيح، أركض، أدخل الخبز اليابس غصب بحلقها، بس ماكوا»، تدعس التراب دعساً في حلقها عساها تبلعه، حتى أنها شالت حوض الماء المعدني على ظهرها، وخلّته قدامها. «سحبته من راسها غصب، غطّيته بالماي، بركت تشربه.. بس تدري شصار؟»؛ مرعى خالٍ سوى من حوض ماء، وفتات خبز متناثر في الأرجاء، ونعجة نافقة، وامرأة تنكئ بمرفقها على حافة الحوض المعوّج. عادت إلى البيت، ليلتها، بغير حالها الأول. ربما تطلعت إلى أضواء المدينة الباردة، المجدبة. ومُذاك صارت تجرّ رجلها جراً إذا ما مشت، وتتكسر عظامها كلما قامت أو قعدت، ونسيت رقم النشرة الجوية، وكفت تترقب الإشارات، وما عادت علوم بوكنعان تهمها. لقد خسرت كل ما لديها، قالت.

وهي، تحلف، بأن تجاعيد وجهها قد ازدادت من ذلك الحين، وبدت أكبر بعشر سنوات من عمرها، وبات قلبها ينغزها. لقد فاض الحزن في داخلها حتى فار، وتحول، حسبما يبدو، إلى صورة تلائمه في هيئتها. قالت: «بس الحزن مو زين، يورث الغفلة، والغفلة ما وراها خير». ثم ذات يوم أفاقت من حزنها، أنهت حدادها، لقت عباؤها حول جسدها، خرجت إلى الشارع، وطرقت باب بيت بوكنعان؛ أرادت أن تتعلم ما يقوله لها بنفسها.

ثم حين انقطع خيط حكايتها التفتت إليّ. كانت قد تخطفني هبات باردة لطفت شيئاً من الصهد. رمقتني كقاصر فهم، وفوق شفيتها ابتسامة هازئة. صاحت: «وبعدين لازم يكون

عندي حاية، يا مطي، عشان يحق لي أفرح بالربيع؟ ليش ماني بشر مثل باقي الخَلق؟ ما
عندي جسم يحرّ ويجمد وروح بيها حسّ!»، ثم عصّت على شفيتها كأنها تهتم بضربي،
وأردفت: «عاب هَالخَلق. قوم عن ويهي»، فقامت.

بات الجو باردًا؛ برودة حمى.

هامش ١

لبطاقة حمضة السّحاب الأمنية، كسائر وثائقنا، التي تختلف عن بطاقات الجميع المسماة
بالمدينة، لونٌ رمادي.

في أعلاها، كما في بطاقتنا، ثمة شريطة صفراء، كُتبت فيها ملاحظة صغيرة: لا تعتبر
البطاقة هوية شخصية وتستخدم في الغرض المخصص لها. وتلك المقولة بدت مطابقة
لحال حمضة.

الصورة: يستر الملفع شعراتها البرتقالية القليلة ورقبتها الهشة. جلد وجهها منكمش. جفناها
مرتحيان يكادان يغطيان عينيها لولا فسحة بسيطة تمكنها من رؤية الربيع إن أقبل، كما
اعتادت أن تقول ضاحكة. لم يبقَ من شفيتها، المضمومتين على طقم أسنانها، إلا خيطان
يدلان على أثر وجود قديم. تسقط عباؤها عن رأسها، وتتكئ على كتفيها، لتكشف جزءًا من
دراعتها، ودرّاعاتها دومًا غامقة اللون؛ كحلية، بنية، زرقاء، سوداء بنقط بيض، كأنها في
حداد دائم. حاجباها موشومان عن كاملها بالأخضر، في ذقنها وشم يشبه الرقم ٧ تعلوه
نقطتان وأسفله نقطة. أما معصمها الموشوم على هيئة هلال، والوشوم الأخر على ظاهر
يدها وكعب إحدى قدميها، ووشم آخر أكثر غرابة، سأكتشفه أسفل رقبتها، فلم تظهر، حتمًا،
في الصورة.

اسمها: حمضة صيوان نهار. ليس رباعياً مثلنا. واسمها الأخير، لا ينبئ بأنها من عائلة لا تستخدم آل التعريف كالعائلات ذات الأصول الفارسية مثلاً. كانت مثل الأبناء مجهولي الأبناء الذين تتولى وزارة الشؤون تسميتهم. وصيوان نهار، الرجل الذي لم يره أحد، لم يكن أباه. لم يكن لجدتي حمضة، اللاهية في عشتها آنذاك، حضوراً في الأوراق الرسمية، ولا لأبيها. وعليه، أضيفت إلى ملف زوجها، وهذا ما جعل اسمها ثلاثياً لا تردفه قبيلة. وإن كان لا بد وأن تكون مضافة إلى ملف ما، فليجعلها جدي عجيل منسوبة إلى واحد من أبناء عمومته البعيدين، صيوان نهار، أحد المنتظمين في السلك العسكري معه، هذا الذي له اسم كامل، وحضور ورقي، ولحظوظه في نيل اعتراف رسمي من الحكومة قريباً؛ ربما ينال جدتي ما ينوله. تقول جدتي: «غلطوا باسمي، هذا أبو النفوس اللّي يكتب بدال ما يحط حيوان، حظ صيوان»، فتهمس الهايشة؛ «الحمد لله إنه غلط». صار أبناء صيوان نهار رفقاء أبي في العسكرية، ولم ينلوا اعترافاً رسمياً، ولا حمضة نالت. على عكسها كنا، نحمل اسم قبيلة. لكنها ليست قبيلتنا الحقيقية. الجميع يعرف ذلك؛ إذ كثير من أبناء عشيرتنا وعشائر أخرى نالها حظنا ذاته. كنا نتوزع بين أسماء قبائل معينة، متعارف عليها، حتى إن بعضاً منا كيلا يدخل في تلك السكة يكتب باسم الجد الرابع في أوراقه. حتى نحن، الصغار، نعرف بشأن ذلك؛ إذ نتوصل إليه حين نبلغ سنّاً يكثر فيه تساؤلنا عن قبيلتنا؛ سن المرحلة المتوسطة، ونكاد نصدق أن القبيلة التي في آخر اسمنا هي قبيلتنا، ونهمّ بتلبس عاداتها ولهجتها وتاريخها، مثل أن يذيل ناصر اسمه في تويتر باسمها، ويكتب تغريدات في تمجيد رموزها والافتخار بها. كان جدي عجيل، الذي يجب أن تنتظم أموره في العسكرية فلا يعكرها شيء، انزوى إلى قبيلة بينه وبينها نسب قديم، قبيلة ما عانى وجودها توجساً، وبينما سجل كبير تلك القبيلة أبناء جلدته في الشرطة والجيش بيسر، ضمّ جدي معهم، ولأجل أن يضمن لجدي ما لهم كتب أنه من قبيلته. كنا ننحدر من عشيرة، كما نسمي قبائلنا، مطموسة الذكر هنا رسمياً، مثل عديد من العشائر الأخرى، ومن هو أبعد من محيطنا، حين يسألنا عنها، ونجيبه، يستغرب، يقلّب في رأسه أسماء القبائل المتعاهد عليها هنا، ولن نجدنا، كنا نقبع وراء الإطار، كمندسين من جرم لا نعرفه. كان شائعاً أن حين اقتراب العرس، نصب لوحة في الشارع، والشوارع القريبة، تُخبر عنه. كانت اللوحات، في أغلبها،

مبنية على الصيغة التالية: (أفراح الـ.. (اسم العائلة)/ يتشرّف فلان فلان الفلاني / بدعوتكم لحضور حفل زفاف نجله فلان/ وذلك مساء يوم.. / في الموقع الفلاني). لكن، ليس من الشائع، أن نتوقف طويلاً إزاء هذا الأمر. إذ لم يعرف أبي أبيض اسم القبيلة التي في أوراقنا أم الحقيقية؟ ارتأى محمد أن نضع اسم جدنا الخامس، الذي نُعرّف به في عشيرتنا بأل التعريف نسبة إلى انتمائنا إلى فرعه من العشيرة. وأنا، في المنطقة التعليمية لأطبع الشهادة الإنجليزية، طلبت الموظفة أن أتهجى اسمي كما في جواز السفر. لم أرَ جوازي الرمادي، ولم نقدم طلباً لاستخراجه، لكن أبي قال: «أنا اذكر اسمي، إن شالله ماكون غلطان»، ثم أرسل تخمينه، كان الأهم ألا أخرج خاليًا، فالشهادة حجتة ليُخرج جوازي بعد أن نجدد بطاقتنا. فكرت في جواز عمتي وضحة الكندي؛ هل عادت إلى اسمها الذي لم يُكتب أبدًا، أم سجّلت بالذي هنا؟ أم ضمّها كبيرُ عائلةٍ هناك إلى ملفه؟

تاريخ الميلاد: ١٩٣٣. يُقال إنها وُلدت وأمها تسير إلى براح مع لفيث من النسوة يجمعن الحطب بينما رجال الحصيرة يعانون حصارًا في غزوة ما. أكبر من تاريخها الورقي أم أصغر؛ هذا في علم الغيب. كان يُفترض أن يسجل لها الدكتور، حين بدأ استخراج الأوراق الرسمية، عمرًا تقريبيًا بالاطلاع على «ضريساتها»، لكنه لم يفعل، إذ دخلت إلى المستشفى، في ذلك اليوم، تنتفض بردًا، فأشفق الطبيب على حالها، وقرر أن عمر امرأة مثلها لن يقدم ويؤخر في البشرية، فشخط لها رقمًا في الورقة، وصرفها. لكنها، على الأقل، كانت تملك شهادة ميلادية. تناكفها أمي: «لو معطين ميلاديتج لمحمد أبرك»، إذ لم تكن لمحمد واحدة حتى بلغ السادسة عشرة من عمره، كان لا يُثبت وجوده غير بلاغ الولادة. نحن الذين جننا بعده كانت لنا شهادات منذ يومنا الأول. ركض أبي بين المكاتب، حمل أوراقًا ومعاملات، حوّلت شؤونه إلى أكثر من لجنة، ثم بعد ستة عشر عامًا مُنح إياها. حين تريد جدتي أن تشرح عمرها التقريبي، تسألنا عن سنة الهدامة متى كانت، تسألنا عن الشيخ الذي كان يحرس سوق الكويت، وعن: «متى الجدري اللي يانا زيغ السنّة وطعمونا بالعشيش؟»، فتتبرم الهايشة: «تذكرين هذا كله، ولسانج بعده عوج، ما تعدّل!»، وحين لا ترتقي الإجابة

ولا السنوات إلى تطلعات حمضة، فإنها تعقد حاجبيها، تصيح: ها؟ تم تمد بوزها رافضة: «لا، أزود! شني ستين؟ شوية!» ثم تظن أنها فوق الثمانين، وربما في التسعين، من يدري.

حين تقلب البطاقة، وفي قفاها، ثمة ملاحظتان بخط صغير، كتبتا قبل ثلاث سنوات، في واحد من التجديدات: (ملاحظة: صاحب العلاقة لديه أو لدى الأخ (تعهد بتعديل وضعه)/ لدى الأخ قرينة دالة على الجنسية العراقية). كانت قد رافقت أبي إلى هناك، حيث الجهة المسؤولة عنّا، في مبنى متوغل بين القسائم الصناعية، تحيطه الأسلاك الشائكة. ثم، تذكر لنا ولجاراتها ومن يتصل بها، أنها جلست تنتظر دورها إلى جانب عجوز على كرسي متحرك وفي حضنه مbole، ثم رأت امرأة عمياء تشذ عن خطوات ابنها الذي يمسكها بتراخ وما ظل كرسي أو حائط إلا وتعثرت به، ثم وقف دورها بسبب ذاك الرجل الذي يقف قدامها، وقد أخذ يجادل موظفًا عن معنى رفضهم تجديد جواز ابنه المفترض به أن يسافر لإنهاء سنته الدراسية الأخيرة بعد شهر، حتى خشيت جدتي أن يضربهم جميعًا. ثم جاء دورها، ووقعت على ما يُفيد بصحة المعلومات الواردة في بطاقتها، قبل أن تستلمها فيرى أبي الملاحظتين. لم يعرف أحد في البيت معنى القرينة الدالة على غيرها، خمنوا أنها ربما تعود إلى بوالصالح، أو واحد من أبناء صيوان نهار الحقيقيين، لكن الهايشة ما عاد يهمها المعنى حين عرفت انتماء القرينة، خارت قواها وقالت: هذا ما كان ينقصنا. وحاولت أمي أن تفكك معنى «تعهد بتعديل وضعه»، كيف يعدّل أحد وضعه القانوني، هل تفعل مثل جارنا بويوسف؟ أما أبي فلم يحاول أن يفهم شيئًا، بقدر ما خاف، دعا نفسه بالحمار، الأثول، والملوم الأول، الذي لم يقلق بشأن التوقيع، خاف أن تسقط جدتي من ملفاتها، ألا تنال شيئًا إذا ما نلنا، وأن يُفسد ذلك ملفنا وكل الإنجازات التي سعى أبي يراكمها طوال حياته، فلا يصير لنوط الشجاعة معنى، ولا لشهادات تقديره إثر أسره في الغزو العراقي، ولا لخانة أصحاب الشهادات في الجهة المسؤولة عنّا، ولا للإحصاء السكاني لعام ١٩٦٥، هذا الذي اسمه واسم عائلته فيه.

حاولت جدتي أن تفهم. شرحنا لها، فرمقتنا مطولًا. وبعد صمت أخرجت لسانها ملوحة بيدها؛ سيان.

رأت حمضة السَّحَاب، بعد منتصف الليل، ما رأت.

كان البيت هاجعًا، إذ انتهى يوم العرس أخيرًا، وخذ كلُّ إلى غرفته بعد أن مرَّ كل شيء بلا كدر، فلا تكاد تسمع حسًّا؛ ربما بعض همهماتٍ تتسرب من مقاطع صَوْرَتها أُمِّي والهايشة أثناء العرس، وقد أخذتا تعيدان تشغيلها، وربما شخير أبي، الذي ظلَّ، طوال ساعات العرس، واقفًا، ملتحفًا ببشنته، مزهوًّا كما ينبغي لرجل لا يدري، حتمًا، كيف ستقلب عليه الساعات القادمة. لكن الأصوات، في خاتمة المطاف، همدت، وبقي هسيس النار.

كانت حمضة السَّحَاب تجلس خلف نارها، بثوبها المخملي المزركش، ملتفة بشالها. كانت قد آثرت العودة من قاعة العرس مع جارة لها، وليس لغضبة الهايشة سببٌ في ذلك.

«يبووي»، قالت الهايشة، وهي تتكىء إلى مسند مقعد السيارة بجانبها، وقد غطت وجهها بيديها، كأنما المشهد تُعاد تفاصيله أمامها. أردفت: «ورب الكعبة سواد وجه!» ضحكت أُمِّي، وهي تُرخي رجليها المتعبتين في الخلف، تدلكهما، مشتكية من رطوبة الجو، وما انفكت خامة فستانها تخرفش طوال الطريق، قالت: «لا حول» وقد بُحَّ صوتها. كان العرس قد انقضى، وانصرفنا من الخيمة التي استأجرها أبي لاستقبال المهنيين، وزفنا أخي إلى زوجته في القاعة فخرجا إلى الفندق ليقضيا يومين فيه، بعد أن أصرَّ أبي على تحمُّل التكاليف.

توصَّلت حمضة، أثناء العرس، إلى المكان الذي تُشغَّل منه الأغاني؛ الذي جي، فعرفت أن بإمكانها اختيار ما تريد. انتبهت إليها الهايشة، ركضت نحوها، سحبتها. يا بنت الحلال، يا الهايشة، لكن لا مناص؛ تهز مريم رأسها رافضة، وتهمس لها: «لا تقولين هايشة قدام الناس، رفيجاتي يسمعونج». منقوصة فرحة مريم، إذ انصبت عينها، طوال العرس، إلى الذي جي. هذه تكرر محاولاتها، وهذه تصدها، حتى غفلت عنها الهايشة، منشغلة ترحب برفيقاتها اللاتي اكتسبت معرفتهن في مدرستها الحكومية، خلال عامها الدراسي الأخير/الوحيد هناك. كانت تحاول إيجاد مكان يبعدهن عن العجائز اللاتي يُظهرن أيديهن بوشومهن الخضر، ذوات الوجوه المتربة والمتشققة، والتي كأن الصحراء، مكانَ عيشهن القديم الذي

قضين فيه ردحًا طويلًا، طبعت أثرها عليهن، إذ يكفيها تبرير حرج اختيارنا لصالة العرس تلك، التي تقع في منطقة قريبة، وقد استأجرناها مقابل مبلغ تأمين رمزي. ليس فندقًا، ولا صالة حديثة يكثر الدوس عليها. فجأة، ضجّ اللحن في القاعة، ما صدقت الهايشة أذنيها؛ إنها تعرف هذا الإيقاع، لكنها تريثت، لثوانٍ، ربما ينقلب الإيقاع إلى مسار يخيب توقعها، ربما ليست الأغنية التي في رأسها. وحين التفتت إلى مساحة الرقص، رأت الأمر يتجسد حقيقيًا كما في أسوأ خيالاتها؛ حمضة تقف في الوسط، بثوبها المخملي في عزّ الصيف، البرقع مسدلّ فوق وجهها (وهذه نعمة؛ ألا ترى صديقاتها ما بوجهها من وشومٍ)، ترقص كتفيها وتحرك سبّابتيها بقبضتين مضمومتين، استعدادًا لبدء وصلة الرّوح على أغنية: وأنا بيا حال والدقان يغمز لي؟

ضحكت أُمّي: «الله يستر لا يحطون علينا قيد أمني كلنا بكره». أشاحت الهايشة بيدها؛ «يا عمّي هي ردت عليها بروحها يعني؟» كما لو أنها ترى جحافل غير مرئية؛ عنوان البيت، بطاقتنا، وظيفتها هي، غرفتها، باستثناء القبيلة التي خلف اسمنا، تلك التي جاءتها مثل هبة لم تتوقعها. وراحت تقلد هيئة حمضة وصوتها، في حين تقرب ملامحها وتمطّ شفّتيها أمامًا؛ «ها حبوبي مريم، هاي الأغنية وقضت، نقصتي إيد؟ نقصتي ريل؟». زفرت، وكمن تغلي في داخلها نارًا، حرّكت جسدها، أسندت مرفقها إلى مسند باب السيارة، ويدها إلى جبينها، «أستغفر الله العظيم، والله ما ودي أعاملها چذي، بس تحدني، ذبحتني، تقطع الوجه يا عبود!». كانت الهايشة قد اصطفت نفسها لمهمة محكمة بالخسارة سلفًا؛ أن تحول جدتنا حمضة، في خارج البيت، إلى إنسانة أخرى غير التي تعيشها، كما لو كانت الهايشة الساحرة في سندريلا وباستطاعتها اجتراح المعجزات. كل ما في حمضة يجب أن يتغير: غرابة أطوارها، لهجتها، وقبل أي شيء آخر ضرورة إجراء عملية ليزر في وجهها، حتى والبرقع يحلّ جزءًا من المعضلة. وبتعبير محمد؛ إنها تريد مسخ جدتنا إلى عجوز في مسلسل محلي على القناة الأولى.

صبّت جدتي حمضة الشاي من إستكانتها إلى حوض الصحن، وأخذت ترشّف. كانت الرطوبة لا تزال، بيد أن هبّات باردة تمر، بين حين وآخر، مثل خطفات البرد. قالت: «عيدة

حضرت»، ثم أرسلت عينيها إلى الباب، كأنها تخشى أن يسمع أبي. كانت قد اختلست، قبل العرس، بطاقات الدعوة، ونادتني، لأكتب دعوات لعيدة، زوجة عم أبي، وبناتها. كانت وعيناها متمسرتان إلى باب الصالة، تنتهد، «عيدة خويتي من عمر، من زمان أول»، كأنها تبرد أمر الدعوة، وتتحسر، في آن، على الوقت الذي ضاع دون أن تتزاورا ولا تتكلما. لم تكن تدل دربًا إلى بيتهم، قبل أن نقرأ اسم حمد، عم أبي، في صفحة الوفيات، ونسمع اسمه يُذاع في نشرة الأخبار. ركضت إلى عزائه، ومنذها، داومت على زياراتها، السرية عن أبي، إلى هناك. وظلت، لأيام، مأخوذة بفكرة أن اسمها، حين موتها، سيكتب في الجرائد ويُذاع في التلفاز، وسيترحم الجميع عليها، من عرفها ومن لا، وكنا نضحك، إذ لا أحد منا يكتب اسمه حين يموت، لا في الجريدة ولا في التلفزيون ولا المجلات الإعلانية حتى، تسألنا، وكأنها لا تعرف، ليش؟ ها هو حمد قد كُتب اسمه! كنا نذهب إلى هناك مع سائق بوكنعان، أو نترقب خروجًا لحمد، وقبل أن تدفع باب بيتنا عائدين، تقررص أذني محذرة إياي ألا أقول شيئًا لأبي، وإن فعلت فإنها ستكوي لساني. لم أعرف لم أقدمت على أخذي معها، مثلما لم أعرف سبب القطيعة التي بقيت، حتى اللحظة، متقدة. تنهدت: «الله يسامحه خليف»، ثم تركت الصحن فوق الطاولة.

غمرنا السكون، لهوت في هاتفي، وصوت ارتشافاتها للشاي يتناهى إليّ.

فجأة، ارتج صحن الإستكانة في يدها. رمت الصحن فوق الطاولة فارتجت. صلبت ظهرها. رفعت سبابتها نحو السماء. تلاحق صوتها كأنها تركض خلف الكلمات. «شوف شوف».

لم يكن غير نجوم متناثرة وقمر أبيض.

استطردت، وعيناها إليّ، كأنها بحاجة إلى تصديقي: «شوف قدامك! اليوم چم؟». كان التاسع من أغسطس. وكان التلهف قد ترك آثارًا على وجهها. هزت رأسها هزات متتالية كأنها تؤكد لنفسها التاريخ، ثم أدارته إلى السماء. صلبت ظهرها أكثر كأنها ستحلّق على الكرسي. بدت قلقة من أن يختفي ما رآته في السماء.

«شوف، شوف، هاي نجمة الثريا مقرانها مع القمر. شوفهن، مسافة صبعين بيناتهن، شوف!».

أخفضت سبابتها ببطء. رمقتني كأنما تذكرت شيئًا عاجلاً يسبق ذلك كله. كان وجهها قد شحب، وحزن العالم كأنما قد تكوم كله في عينيها الشفافتين، الملتمعتين، حد لو أني لمستهما لانكسرتا. «الليلة تسعة؟» وكان صوتها غير الذي كان متلهفًا حالًا. أجبتها: «إي». ابتلعت ريقها. لم يكد صوتها يخرج منها حين قالت؛ برد الأزيزج. همست كأن حبالها الصوتية قد تقطعت: «قران تاسع، بردٍ لاسع. هذا هوّ. موعده الليلة».

أحكمت لَفَ معطفها، كأن الجملة أشعرتها بلسوعة البرد. «طول الوجلّت چنّت عايشة بقران حادي». أسبلت عينيها أرضًا، ذبلت استقامتها، تاهت حدقتها، جاستا في الأثناء، فلم تستقرًا على مكان. تخيلتها بتلك الهيئة حين نفقت ماشيتها.

طال صمتها. لم ترفع رأسها المتدلي إلى صدرها. هممت أناديها، لكنها، وببطء، رفعت رأسها، رفعت حاجبيها، وضيقت عينيها مخافة أن يهل الدمع الذي تحجّر فيهما. قالت، وهي تنطق كل كلمة على حدة، كأنها تقرأ صفحة قدامها: «وأنا طول الوجلّت چنّت بداية البرد. واليوم بس دَخَلت برد الأزيزج». دفعت كفيها سريعًا إلى وجهها، فركت عينيها، بررت؛ دخان الجمر ذبح عويناتي، رغم أن الدخان لم يتعد ركبتيها.

تذكرت اللحظات التي لم يجد أبي خلالها بدءًا من الإسراع بها إلى المستشفى، وقتما كانت تصدق ما في التلفاز عن أخبار الربيع. ماذا لو سقطت الآن. أخبرتها أن ليس في السماء ما يثبت بأن النجوم في حالة اقتران، وليس بوسعها أن تتبين الصورة كاملة في المدينة. حاولت سرد كل التطمينات التي أعرف. لم يبدُ أنها تصغي. مطت شفتيها، وصاحت: «يعني أنا جدّابة؟».

متكئة بيديها إلى الكرسي نهضت من مكانها. أخدمت النار، وأعدت كيس الفحم إلى مكانه. كانت واقفة، تفتل خيوط الشال، تتمتم بصوت كأن دخانًا علق به: «شكل غرضاني اللي

خاشتهن راح يروحن لناس ثانية غيري». مالت في وقفها وكأن برد الأذيرق قد ميّ لها. تبعتها إلى غرفتها، متوجسًا من حدوث شيء لها في وحدتها.

كلّما فُتح باب غرفتها صرّ، مثل صوت نورس جريح. كانت غرفة خانقة، تغمرها رائحة فازلين، وحناء مكوّمة في زاوية خزانها الخشبية، التي تعلوها أكياس نيلون زرقاء وبضعة كراتين تنتظر دورها في نقل الأمانات. ثمة رائحة أخرى تنبئ بأن الحياة تتفسخ في هذا المكان. كانت تلك الروائح التي كافحت الهايشة سنوات لتتخلص منها، تارة بالبخور والعطور، وبالتذمر قدام الجدة تارة أخرى. وفي الزاوية، مدفأة كهربائية صغيرة، مُضاءة أعمدتها البرتقالية دومًا.

عند أحد بابي الخزانة، أقعت أرضًا، تكرمشت ملامحها كأن أوتار رجليها تمزقت. مدت قدميها قبالتها، وشرعت باب الخزانة. فاحت روائح عدة؛ عطور قديمة، بهارات بعضها فوق بعض، ملابس مخزّنة. باعدت بيديها أكداسًا من ملابس داخلية بيضاء رجالية، أقمشة نسائية بألوان باهتة، من تلك التي كانت تبيعها في بسطة فرشتها في السوق بعد عودة أبي من الأسر وقد انقطع عن عمله بسبب التحقيقات، وقد صرفت العديد منها، منذ ذلك الحين، إلى بوصالح، وتركت جزءًا لديها، إذ تريد، كذلك، أن تهادي جاراتها في مناسباتهن. في صَفّ لوحده، كانت بضع دراعات بيتية ونفانيف مكوّمة بترتيب يختلف عن البقية، ذات طراز قديم بعض الشيء. إنها ثياب عمتي وضحة. لم أرها أبدًا، يقولون إنني فعلت، وحتى لو لم أفعل، فقد كنت أعرف هيتها بكل مراحل عمرها، أعرف وزنها، مقاس أحذيتها، وحتى رائحتها أعرفها؛ إذ ما دخلت تلك الثياب، منذ أكثر من تسعة عشر عامًا، إلى الغسالة أبدًا. ولم يكن من بين الحاجات، بالطبع، ذلك المعطف الصوفي بنّي اللون، الطويل مثل عباءة، ولا السروال الأسود الطويل، والحجاب الأبيض مثلث الشكل كالذي انتشر في التسعينيات رغم أن الحدث في بداية الألفية، ولا حقيبة اليد السوداء؛ كان ذلك آخر لباس دخلت فيه عمتي وضحة هذا البيت، بيتنا، حين أحسّت أمي، وهي تصلّي الضحى وحيدة في الصالة، بحفيف خطوات تدفع باب الحوش الموارب، ولم تكد تسلّم وترفع عينيها حتى رأت أمامها عمتي وضحة، التي كانت عندهم ليلة البارحة، وودّعتهم، وقضى الأمر، لكنها عادت،

بمعطف في حرّ سبتمبر؛ ربما سمعت ببرودة كندا، ربما أرادت أن تتطبع بمزاجها فتنال رضاها. ارتجف صوتها: «أبي أشوف أمي». لم تخرج جدتي حمضة لتوديع ابنتها، اعتزلت في غرفتها، أقفلت بابها طوال الليلة الماضية، ولم تهزها طرقات عمتي، ولا بكاءؤها، ورجاءاتها، وتدخلات أبي، وفي اللحظة التي قررت أن تفتح بابها وتخرج، اندفعت تزعق في وجه ابنتها، تدفعها، «قلبي مو راضي عليك إن رحتي. الله لا يرضى عليك يا الفائرة»، بكت عمتي، حاولت أن يعلو صوتها فوق صوت أمها، أن تقول لها لا بد من الرحيل؛ لقد انتهى كل شيء وبعد ساعات ستركب الطائرة؛ «قسم بالله ودي أقعد، والله ودي، بس خلاص»، وها هي ذي، في الصباح الموالي، تعود، وتطرق الباب من جديد. عند ذلك، لم يصلها صوت جدتي أبدًا، لم تخرج إليها أبدًا. خرج أبي من غرفته، قبل أن يغسل وجهه حتى. كَلَّم أمه من وراء الباب؛ طيارة البنت بعد شوي، حرام عليك يُمّه. فجاء صوت جدتي رخيماً، راسخاً، مثل الطبقة التي تستهل بها أم كلثوم أغنياتها: «خل تروح، الله يوفّجها»، ففزّت عمتي تشهق، وبخلاف ذلك ما كان إلا السكوت، وإذ طال ناداها أبي: يُمّه، ثم عرف بأنها لن تخرج أبدًا.

وصلت يداها إلى صندوقها البني، ذاك الذي أول ما حملته إلى غرفتها. خلّته في حجرها. فرقع كأنه يحوي علبة زجاجية. حدجتني قائلة: «ذئي غرضاني، تعال ياي»، فاقتربت مقعياً.

فتحت الصندوق. في طرفه، كانت عباءة قماشية سوداء مطوية، مطرزة أطرافها بلون ذهبي، «زبون» كما أسمته. إلى جانبها دراعة خضراء اللون، ناضر اخضرارها، مطرزة برسومات أزهار عدة، كأنها ثوب طفلة للعيد. وفي الطرف الآخر مكحلة قديمة. تلمستهن كمن تلمس رضيعاً. قالت: «هاي هدية ذيج السنة، يوم عرّست ذاك الربيع، إنطنتني إياهن أمي الله يرحمها»، هدية تتجاوز السبعين عاماً.

أمسكت بالدرّاعة ذات القماش الخفيف بكلتا يديها، رفعتها، أفردتها، قالت: «شوف». هزتها يميناً ويساراً كأن فتاة تتهادى بداخلها. بدت الدرّاعة مثل منمنمة قديمة، تكاد تهترئ بين يديها. تركتها في حضنها. تنهدت: «قالت لي إذا ياچ الربيع مئاك، بدياركم، إلبسيها، وامشي

بيها يا حمضة. تراهي من الخام الزين». أخرجت الزبون، الذي يكاد يتحول إلى كيس قمامة أسود. فعلت به مثل الدراعة. أما المكحلة، التي لا تُعرف كيف آلت رائحتها ولا ملمسها، فلم تقترب منها.

تفتت صوتها، تهدلت شفيتها السفلى، رفعت سبابتها، وقالت: «سبعين سنة!»، كأنها تكلم أطيافاً غير مرئية، «سبعين سنة وأنا بقران حادي!». وكما يندفع القيء فجأةً اندفع البكاء من عينيها، واختض جسدها، كما لو كانت تنقل الحزن، لفرط ثقله، بين أضلعها. انسابت الدموع إلى ملفعها، ثوبها، ولم تمسحها بكم شالها، لم تغالبها بضحكة مرّة، تركتها تنساب مثل جدول ماء بعد انهيار سد، مثل إعصار يقوض جداراً. تركت الصندوق جانباً، مفتوحاً، بداخله القماشتان غير المطويتين، وافترشت الأرض، توسدت ذراعها، ثم بعد حين أشارت إلى الباب: «صك الباب إذا طلعت». لم أعرف ما الذي عليّ فعله. وبغته، تذكرت، ويا للغباء، أني أخبرتها بأن اليوم تاسع. تذكرت ما الذي يعنيه قران تاسع. كانت بصوت خافت تردد؛ قران تاسع، ثم يعلو حسّها.. بردٍ لاسع. كأنها تمسك بالقران وتؤنّب على وصوله متأخراً.

لكنها، عصر اليوم الموالي، خضتني من رجلي.

«يلاً قوم»، فتحت عينيّ، فوجدتها عند رأسي مثل غراب ينقر عين جيفة. غمرنا ضوء الصالة، رفع أحد إخواني رأسه من سريره مغمغماً؛ سكروا الباب، فنظرث إليه مشيرة: اخمد. كانت عجلي. التفتت نحوي: «قوم غسّل وامش معاي»، وأقفت بخفة. «لا تيبب مفتاح سيارة، نروح مشي»، قالت وهي تختفي.

ارتديت بلوزة بنصف كم وسروالاً قطنيّاً. «لا تلبس بلوزة كنزو، بطلع فيها اليوم»، قال ناصر وهو يقلب رأسه إلى الجهة الأخرى، مُكملاً رقدته في سرير محمد الخشبي.

كان قد سألني في الأمس: «للحينك صامل على إسكندرية؟» وهو مستلقٍ فوق سريره الجديد، ماداً قدميه واحدة فوق الأخرى، محدقاً إلى شاشة هاتفه.

كلما انفتحت السيرة، تعلّقت عيناه بأبي، قائلاً: «إذا ما يببها أنا أروح بداله إذا تخرجت يُبه. كلّها سنة». يهز أبي رأسه، وعيناه إلى هاتفه، لا ينظر نحوه حتى، كان يقول إنني سأذهب، وإذا ما ناصر شدّ حيله في قادم الأيام، وتيسرت الفرصة، فربما سيتبعني، لكن أنا أولاً. ثم، في يوم، يشير له ناصر بنيته دراسة الطيران المدني، فيضحك أبي، نبتسم، نقول: «سمعان بيصير طيار»، وفي يوم آخر، يبدل طموحه إلى الهندسة الوراثية، إذ درس يومها قانون ميندل في الأحياء، يجيبه أبي: «لأ، مهندس مدني أحسن»، فيبتلع ناصر غضبه. كان يقول لي: ما خبرناك تحب الطب. كان يستحيل التمييز بين الأشياء التي نحبّ، وتلك التي فرضت علينا، ذلك أن الاختيار كلمة ليست من شأننا. قبل أن أغلق باب الغرفة، أفلت أحدهم ما يشبه اختضاض بطن، أو ربما ضرطة.

كان محمد، قبل عرسه، حين تساورت معه إلى محل عمله، أوصله فأخذ سيارته كي أقضي مشاوير الهايشة وأمي، سألني: «شنو التخصص اللي نويت عليه؟».

كان صمّتا قد امتد بيننا طوال الطريق، بمثل تلك المسافة التي تفصل بين عمرينا، بين أخوين لا يعرفان عن بعضهما إلا القليل، أقل القليل. قلبت هاتفي في حضني، بحثت عن شيء أقوله. كانت سيارته خانقة، تتكثف فيها رائحة السجائر. أكداس من الأعقاب ملقاة في منفضة السيارة. سلك Aux محشور في زاوية المقعد. شماغ في المقعد الخلفي. فردة نعل نجدية في الأمام. أوراق متناثرة، والكثير من الغبار. أخرج سيجارة من علبة مارلبورو بيضاء من جيبه، وأشعلها، ثم سألني. ابتسمت مستغرباً عدم معرفته، فأردف جاداً: «أقصد اللي ودك فيه؟»، أحبته بغباوة: «مدري، أي شي. طبيب أسنان». لا أفكر في شيء حالياً، غير طب الأسنان؛ تخصص جيد، يكاد يكون الوحيد الذي يدرّ مردوداً طيباً، وتسمح لنا ظروفنا بدخوله، التخصص الوحيد الذي يعادل العسكرية في زمن أبي وقتما كانت مسموحة لنا، والأمثل، طبعا، لحياة كريمة. وكما لو أنني قد أخطأت قاطعني غاضباً: «اترك عنك معاش وخرابيط وهالكلام. إنت ودك تكمل بالجامعة ولا لأ؟». كانت نبرته موضوعية، لا خيبة فيها كما يتوقع من شخص بتاريخه الدراسي، ولا غضباً يليق بصاحب حساب إلى متى. سأل: أتريد طب الأسنان أم لا؟ لم يسألني أحد عن ذلك من قبل. خفت من الإجابة،

خفت حتى من التفكير فيها. كان الكل يتوقع مني فعل ذلك، أولهم أبي، فكيف أخيه ثانية؟ طال صمتي فسألني: «عشان أبوي بتدخل هالتخصص، صح؟» هزرت رأسي بنعم. شعرت بالذنب لاعترافي. فكرت، وكثيرًا ما فكرت، لم لا أريد ذلك، لم أخشى من الاعتراف بذلك. ربما كان خوفًا من المستقبل الغامض بطبيعة الحال، كيوم دخلنا المدارس الحكومية. لا. لم أكن أريد أيًا من ذلك. جل ما أردت وظيفة مكتبية روتينية، صباحية، تنتهي فور خروجي من العمل، فأتفرغ بعدها لحياتي أيًا كان شكلها. بعد التخرّج، كانت رسائل مجموعة أصدقائي في الثانوية في الواتسآب، يسألون عن أحوال بعضهم، أين قدّم فلان، وما فعل علان. ثمة من تقدم ببعثة حكومية إلى أمريكا وسيغادر هذا الشهر، وثمة من سيذهب إلى بريطانيا على نفقة الحكومة كذلك، نزرّ قليل في جامعات محلية خاصة، وأغلبية عظمى هنا؛ جامعة الكويت، المعهد التطبيقي، وكانت تلك الفئة أكثرها سعادة، إذ لا يعني لها شيئًا المستقبل المضمون سلفًا. واكتشفت أن هذا ما أريده حينها، أن أكون مثل الأغلبية العظمى، دون أية دراية بما يعنيه تخصصهم، الواثقون بمستقبلهم، الذين يعرفون شكل وظائفهم. تمنيت ذلك الترف، مثلما تمنيت، فيما مضى، أن أعود سريعًا إلى المدرسة الخاصة، أعود إلى أصدقائي الذين هناك، الذين يفكرون في أهمية التخصص مثلنا، الذين ليسوا متأكدين إذا ما كانوا سيضطّون مدخل الجامعة أم لا، ما إذا كانوا سيسددون فاتورة الفصل الجاري في المدرسة. تمنيت أن أعود قبل أن أنجرف خلف أوهامي. زفر، «أبوي مشكلة». إنه يبسط ظلاله علينا، يرانا الأوراق التي في ملفه، امتيازاته، وإنجازاته، التي لو فقط يُلتفت لها فيرونه يحملها، على غرار أسره في الغزو، نوط الشجاعة، والإحصاء السكاني لعام ٦٥. قال محمد إن أبي حين يكلمك في هذا الموضوع، موضوع الدراسة، فلا يكلمك لوحده، بل أنه يحس نفسه في معركة يجب عليه أن ينتصر فيها. كان مبتسمًا، يضحك، رائيًا تفكيره. أحبته ألا شيء يفرق معي. ليس لي طموح. قال: «أحسن»، بنبرة توحى بالتهنئة. ثم نظر نحوي، أردف كما لو أنه يكتب تغريدة في حسابه؛ بما أننا، بطريقة أو بأخرى، مسيرين في هذي البلد بتخصصات جامعية محدودة، ونمط حياتي واحد، وكل هذه الأمور التي تعرفها، فمن الأفضل ألا تكون لديك أوهام في رأسك تتعلق بها مثل إخوتك المجانين، ولا أي شيء آخر، «ريح مخك، واختار اللي موجود قدامك، إذا بغيته طبعًا». لم أسأله عما إذا لم أكن

أبتغيه، ولم أسأله عما إذا كان قد ابتغى مكانه الحالي؛ البقالة المنصوبة فوق رصيف أحد الشوارع شراكةً مع صديقه.

كانت جدتي حمضة تجلس في الصلاة، عباؤها على متنيها، برقعها مرفوع فوق وجهها، وأبي قريبًا منها، وقد انحسرت الغترة عن جزء من شعره، ومن عيني أمي أطلت تلك النظرة المنذرة بالخراب. بدا أن دخولي قد بتر حوارًا ما. قالت جدتي حمضة: «تعال عبود، عيني»، ومدت يدها إليّ. استوت واقفة، ثبتت عباؤها على رأسها، قالت: «يا الله»، وكانت أمي تنظر نحوي، بأسف.

من مكان ما تردد صوت الهايشة، بشكل بدا معه أنها تعنّف أحد إخواني الصغار، تنهره لمّ يقول حارة بدلًا من شارع أو فريج: «وين قاعدين إحنا؟». كانت تصيح، تقول إن هذا ما جعلهم يفعلون فعلتهم بنا؛ لهجتنا، طريقة عيشنا، إننا نستحق ما نحن فيه. كنت أبحث عن نعل «بواصبع» بين كومة الأحذية، وأمي، بنبرة مكهربة، غاضبة، نادرًا ما أبدتها، تردّ على الهايشة: «صكي حلقج، لا العن والدينج». ما منحنتي جدتي حمضة فرصة لأفهم ما يحدث.

خارج البيت، تصير خطوات حمضة السحاب أكثر بطئًا، رغم أنها لا تزال قادرة على المشي بأريحية كما في البيت دون أن تتمايل. غمزت، بينما أسدلت البرقع فوق وجهها، في غضون سيرنا فوق لسان الأسفلت، بين البيوت الواطئة، المكتظة حتى آخرها بألواح الصفيح، والسيارات المركونة على الجانبين. «ما تدري ياهو اللي يحسدك من بين هاللي يطالعونك بالدرايش»، وأشارت نحو النوافذ، ثم ضحكت: «عاد أموت محرولة وبردانة. يبوي!».

تعثرنا في تعرج كاد يسقطنا في حفرة مملوءة بمياه أسنة. استندت جدتي بيديها سريعًا إلى صندوق سيارة حسين الكامري. طشّ الماء من حولنا. شرع حسين يفتح نافذة سيارته: «سلامات حجّية». «يسلمك حبّوبي»، فخفت أن يغضب، إذ لم تنعته بالدكتور. نفضت الماء عن سروالي المبلل أسفله. سألتني: «تطيّنتك ريلك؟». خلعتُ نعلي، فركت رجليّ بالأسفلت حتى تبقى بباطنهما أثر طين جاف.

قبل أيام، سألته عن إجراءات الدراسة في الخارج، فاستند إلى صندوق سيارته يمجّ من سيجارته. تنهّد؛ «تري الدراسة صعبة، والمصاريف تهدّ الحيل، يبيلها رجّال»، ثم تفكّر طويلاً، سلكت ملامح وجهه منحى درامتيكياً، قال: «شفت طبيب أسنان سيارته كورلاً؟». ليس غيرنا. وكمن تذكر أردف: «تري إذا تخرجت، راح تتوظف، إذا كانوا بعدهم يوظفونا بعد خمس سنين، على بند أجر مقابل عمل». لا أعرف ما يعنيه ذلك. تولى يشرح؛ لا مكافآت وحوافر، لا إجازات، ولا مكافأة نهاية خدمة. سألته عمّا إذا كانت هنا، في بلدنا، جامعة خاصّة. رمقني كما لو كنت حشرة، ربما قال في سرّه: أهذا طفل أم غبي؟ فخشيت أن أسأله عن إمكانية دخولي إلى الجامعة الحكومية أيضاً. وبعد أن انتهى من قصة كفاحه، رمى سيجارته أرضاً، وأدار ظهره.

استأنفت وجدتي سيرنا. كانت الدنيا لا تزال ضبابية في عيني. لم أصح من نومي تماماً. قالت: «هيّ إش بيها الشوارع يوم عن يوم تضيح بينا؟ يا ربي دخيلك.. لاحقين عالقبر».

كانت خطاها تتجه ناحية مسجد من الصفيح بلا مئذنة. كان الشارع غاطاً في عصرية خاملة، ليس سوى عامل بقالة هندي فوق دراجته الهوائية مثلثاً بشماغ أحمر اتقاء ما يبدو حرّاً، شلّة أطفال يلعبون قبالة بيت، يقفزون فوق كتيب رملي، وخادمة إفريقية تحمل رضيعاً، تراقبهم بكسل. كان الجو محملاً بنسيم ذي برودة طفيفة.

مررنا قريباً من بيت كان بحالة قديمة، تظله ألواح الصفيح، كأن أحداً ما سكنه منذ بنائه. جداره متشقّق الطلاء بدأ لونه يبهت، يتحول من الأبيض إلى الأصفر، مثبت عليه صندوقي جريدتين إحداهما لا أذكر أنها صدرت في يوم، تتوقف قبالة رصيفه سيارة «دسن» صغيرة يكسوها الغبار.

«هذا بيت الشايب ريسان، تعرفه؟».

كنا نراه منذ صلاة الفجر، إذ يُخرج كرسيّاً من النايلون، ويقتعده على الرصيف، في تخشبية غير آدمية، كأنه في استراحة سجن. يجلس هكذا إلى حين ميقات صلاة العشاء. يصلي،

في زاوية الصّفّ الأول من المسجد، لصق الجدار، ثم يعود إلى الداخل.

«كان أسير ويا أبوك بالسلامجة. تعرف بالسلامجة؟».

متجهماً طوال الوقت كان، يُشبهه كلينت إيستوود، يلف رأسه بشماغ أحمر دون عقال، يرتدي حذاء الجيش، ولا يفعل سوى النظر؛ يرمق كل ما يمر قدامه بغضب أو حياد. باستثناء الغمغمة برد السلام لم يكن يتكلم. وإذا ما سأله أحد: كيف حالك يا بوفلان، لا يجيب.

«وهم كان مع الحجّي، يدّك، يوم الحرب بمصر ذيچ السنة. تعرفها ذيچ الحرب؟».

كان، شتاءً، يلتف في معطف خاكي احتفظ به منذ أيام الجيش. نراه في بقالة حجاج بخيت ونخشاه. كان يسبقنا، وهو لا يشتري غير علبة زقاير، وقنينة بيبي زجاجية. وتلك الأخيرة، يفتحها عند البقال، يكرعها بنهم غريب دفعةً واحدة، وحين يفرغ يسلمها للبقال ويتجشأ، يمسح فمه بطرف كفه، ثم يخرج بينما يشعل سيجارة.

«الله يرحمه»، تنهدت جدتي حمضة.

حين مات، قبل بضعة أشهر، دفنه بعض الجيران والباحثون عن الأجر وقرابة من بعيد، ودام عزأؤه لعدة ساعات في المقبرة فقط.

تجاوزناه. كان يلاصقه بيت أبي يوسف؛ الرجل الذي يقرب إلينا من بعيد. ثمة شاب، واحد من أبنائه، كان يثني كمي سرواله حتى ركبتيه، يمسح بالفوطة سيارة مبللة مركونة تحت مظلة الصفيح. بادرتة جدتي: «سَلِّم على أمك، قولها أم خليف تسلم عليج». توقف مرتبًا لوهلة، قال: «الله يسلمج خاله أم خليف». سكتت، ولم تعرّج إلى موضوع بيتهم، ذلك أنها لا تفهم أبعاده. ما تعرفه ليس إلا طرف خيط: لقد اشتروا جوازات. تقولها دومًا بصوت خافت كأنه سرٌّ دام.

كانت أم يوسف، في تلك الأيام التي بدأت تحمل فيها جوازًا إرتيريًا باسمها، بعد نصيحة من أقارب اشتروا جوازًا دومينيكيًا لتسهيل المعاملات والإجراءات بحسب من نصحهم، تدخل إلى بيتنا يوميًا، تشرب عدة إستكانات شاي مع أمي وجدتي، ثم ترجو الأولى أن تسأل أبي إلام سيؤول وضعهم الآن؟ «هذا احنا عدلنا وضعنا مثل ما قالوا، شراح يصير علينا؟ تكفين انشدي أبو محمد».

في أيام آخر، تروح في شكوى طويلة عن بويوسف، المخبول، الذي ورطها وعبالها بهذي الجوازات التي اكتشفت، تاليًا، بأنها مزورة، وإلا لو كان عليها فهي منذ البداية قرصها قلبها. كانت تعرف أن ما من ورائها منفعة، مذ جلست وزوجها بعد أن عثرا في مجلة على إعلان لمكتب وسيط لشراء الجوازات، يتخيران بين أسماء الدول كأنهما يقرآن من كتالوج؛ كينيا، بوليفيا، ودول لا تعرف كيف تنطق اسمها. ثم تصفق كفيها: «هي لو فيها خير چان ما دلونا على طريقها، لا بارچ الله فيه من طريق، ولا بارچ ببو يوسف فوقهن».

وفي يوم، جاءت تركض، حتى أن إحدى يديها بقيت خارج كم العباءة. دفعت باب بيتنا، فرأنا نلتم على صينية الغداء. انتبذت في الزاوية، كأنها غير مرئية. كانت تلهث؛ «السموحة منكم، بس بغيت أم محمد بكلمة على السريع». قامت أمي بقبضة مضمومة يقطر منها الدهن. تناهت إلينا تمتماتهن مع لهاث أم يوسف. قال أبي: «اشربي لچ قلاص ماي يا أم يوسف»، فصاحت أم يوسف: «كثر خيرك يا بومحمد، أنا ماشية، واعدرونا على الإزعاج»، ثم تقفل عائدة، تدفع نفسها للمشي مثل سيارة نغد وقودها. كانت قد أوصت أمي أن تسأل أبي: «يقولون اللي عندهم جوازات وعدلوا وضعهم، مالهم حق خلاص، هل هالكلام صحيح؟». أبي، الذي يفرقع الأكل في حلقة، وقبل أن يكرع كوب اللبن، يقول بنبرة العارف: «خل يديرون بالهم بس، لا يتسفرّون على أدنى شي. الواحد ما يدري بعد».

في تلك اللحظة، لحظة سيرنا، بدت جدتي حمضة كمن تتذكر أيام عزّها؛ حين كان ارتداؤها للعباءة سهلًا، ورجلاها في عافيتها. كانت تسعى في الشوارع مثل كلب هائم، إن رأت بابًا منفرجًا دفعته صائحة: يا عرب. ترقص في عرس أبناء هذي، وتنام في عزاء إحداهن كي

تواصي أهلها، قبل أن تكبر، قبل أن يمتن شطرًا من جاراتها، وشطرًا يغادر المكان بعد ملازمته طويلاً؛ منهم من انتهت خدمة (ابنها/زوجها) العسكرية فما عاد مستحقًا للبيت، ومنهم من غصَّ المكان بهم فخرجوا يبحثون عن آخر يسعهم بأقل التكاليف.

كان باب بيت بوكنعان مواربًا على الدوام. حشرت جدتي رأسها في فتحتة. صاحت: يا عرب، يا أم كنعان، يا هوب. حين لم تجد إجابة، دفعت الباب، وغابت في الداخل، «يا أهل البيت، وينكم بيه؟».

كانت تقول صحيحٌ أنها ابنة شيخ عشيرته، وأن شيخة أبيها لم تورثها إلا فقرًا وسمادًا على عينها، إلا أنها كذلك منحتها الأهم؛ القدرة على فض النزاعات. كل القصص تقول، بأنها، فيما انقضى من عمرها، كانت ترفس أبواب الجارات المتخاضات، تستمع إليهن وتصلح. كانت تمنح الصدقات لرفيقاتها الكثيرات، كل ما يقع بين يديها يذهب إليهن، وكلما رجعت من زيارة إحداهن، تضع يدها على رأسها وتختض باكية، تقول: هذا وگت أعوذ بالله من شره، جار عليهن تالي أعمارهن. ثم تحمد الله على أنها لا تزال في منجى من هذا الجور.

تناهى إليّ خطو نعل أم كنعان فوق أرضية الحوش، «يا وليدي، إش نوحك واقفٍ برّا؟ اقلط يا هلا بك»، كان لها صوت صفير غلالية مياه.

لم تبدُ ديوانية بوكنعان، في آخر مرة زرتها، هكذا. لقد تحولت إلى مجلس معاصر؛ وُجَارَ يحتل جدارًا كاملاً، مثل رفوف مكتبة، يضم عددًا من أباريق الشاي وِدلال القهوة النحاسية والمذهبة، بأحجام من الصغر إلى الكبر. وثمة إطارات، وسط ذلك الوجار، كانت تحفّ تلفزيون بلازما معلق على الجدار. جلسة أرضية بلون بتي على امتداد المجلس الصغير، مع مساند باللون ذاته. سألت أم كنعان: «وش رايتس بالمجلس الجديد؟».

مثل عامل متعب، حطت جدتي حمضة فوق أحد المساند، ممسكة بفنجان القهوة، تستريح عباؤها فوق متنيها، والبرقع المرفوع يتدلى مثل أذن معزة سوداء. أم كنعان، المرأة المربوعة مثل دلة تنظر إليها عبر مرآة مكبرة، تلف على رأسها شيلة حمراء بنقط بيضاء

صغيرة وبرقعها مسدلٌ فوق وجهها، تجلس قبالة جدتي، وقد توسّطت صينية القهوة والشاي المسافةَ بينهما، ترجوها أن تنزل عن المسند، أن تجلس أرضًا كي لا تخفسها: «يا مرة انزحي عن المُرْكة، حرام عليّتس تراهي جديدة، خلينا نتهئى بها». رشفت جدتي من فنجانها، حدجت أم كنعان، التي وزوجها يقبلان الكاف إلى تس، قالت: «الله أكبر عليج! شايفة چعبي چعب هايشة»، فاخترض بطن أم كنعان الذي يبدو مثل قربة جلدية ممتلئة، وأخذت تنخر. الچعب، لازمة بينهما، تعني مؤخرة. عدّلت جدتي من وضع شالها، حتى انتبعت إليه أم كنعان، واندفعت تقول: «وشّوله لابسة سديري وحنّا في عز القيظ؟». لم تعبأ جدتي، أو قررت أنها لم تسمع؛ مدت لها الفنجان خاليًا وقد هزّته.

«وين أبو كنعان؟ لا يكون نايم؟».

«لا ما هو نيم. رايح قريّب وتراو على جية».

قالت أم كنعان وقد أخذت تصبّ الشاي: «وهذا الچاي المخدر»، فأخذت جدتي استكانتها ملحنّة: «خدري الچاي خدري». فقلّدت أم كنعان لهجتها بينما تصبّ لنفسها استكانة أخرى: «عيوني لمن أخدره؟». ضحكتا. قالت إنها حصلت على رواتبها المقطوعة دفعة واحدة، فزوّجت ابنيها في العرس الذي حضرناه مطلع العام، وأعدت تأثيث المجلس، الذي تحول في فترة ما إلى غرفة لابنيها، وها قد تزوجا واستقلا في السكن، فخلت الغرفة ثانية لأبي كنعان وضيّفانه؛ «الرجل بغي يزهد من غير مجلسه، ما ردت فيه الروح لين رجع شاف ضيوفه».

سمعنا صوت خطو في الصوت.

«هذا أبو تسنعان، وصل».

اتكأت زوجته على يديها ورجليها لتقوم، وغابت عن الديوانية. لم أرها يومًا إلا والبرقع مسدلٌ فوق وجهها، حتى لو كان البيت فائضًا بالنساء وأقاربها، كأنها مولودة به. أنعمت

جدتي حمضة بصرها في المكان. انسحبت حدقتها إلى الورا، حتى أوشكتنا أن تغيبا داخل محجريهما؛ كانت تقارن بين هذي الديوانية، وتلك التي تحولت إلى غرفة نوم في بيتنا. مثل تلك النظرة لاحت في عيني أبي، حين كان يصحبنا صغارا في جولات العيد، إلى مجالس الأقارب، إذ يتأملها ويناقش في تصميمها مقترحا طرائق أخرى. تنهدت: «ما شان الله، ربّي يبارك إلهم».

دخل بوكنعان مهللا. وقف عند العتبة. لا ترتفع عيناه عن القاع كعادته. انعكس الضوء فوق لحيته التي غزاها الشيب أكثر من ذي قبل. قبلته على أنفه، بينما رجته جدتي أن يجلس قبالتها. أصرّ بأنه مرتاح في مكانه. «مستحي مئي يا بوكنعان؟ وإنت أول تلعب ويا خليل وچنت أسبحكم سوى! أقول اقعد». ضحك. ضحك هو الآخر متقدما بخطوات متمايلة. سألته جدتي عن حال رجله، رغم معرفتها أن لا مناص من عرجه الأبدي، «على ما هي، نحمد الله ونشكرو». كانت شظية قد استقرت في إحدى ساقيه خلال حرب التحرير.

تلقت دلة القهوة من يدي أم كنعان. كانت جدتي في تلك الأثناء تلتف حول ما جاءت من أجله كأنها تخشاه. خاضت في شؤون المسجد الشينكو الذي يؤم فيه الصلاة، وفي حال أخته التي رأتها مرة قبل أن تتزوج بابن عمها وترحل معه إلى حفر الباطن، ثم تسأله عن أبنائه عساهم حازوا على جنسية أهمهم، رغم إدراكها استحالة ذلك. أجابها مبتسما: «إلا إذا نوت أم تسنعان تخلعن، وأعوّد للحفر». ردّت أم كنعان بينما تفتلي أشياء لا نراها من سجادة الديوانية: «أو إنك تموت». ضحكنا إلا جدتي، سألت بجدية تنافي اللحظة: «ليش؟» فلوّحت أم كنعان بيديها كأنها تقول: كفي يا امرأة، لا قبل لنا بهذا الكلام. وبدوره، سأله بوكنعان عن حالنا، عن البطاقات، وعمّا استجد في ملفنا الراكد أبدا.

وبعد أن شربت ثلاثة فناجين، اعتدلت في جلستها كأنها بحضرة أمير، وقالت: «أقلّك بوكنعان». فلّت بأصابعها أطراف عباءتها. «أنا بيت أنشدك إذا إنك للحين تعرف عن النجوم والمواسم والسوّالف هاي». ابتسم بوكنعان كما لو أنّ طالبة في الصف الأول تسأل أستاذا حليما. هز رأسه؛ «أفا عليّتس، وش شاغلٍ بالتس؟» أجابته بأنها رأت الأزيرق أمس. لطمت

أم كنعان قلبها، «يا ويلي! وش أزيرقوه اللي شفتيه وحنًا في عز الحر؟ أخاف حلمانة يا..»،
فلكرها بوكنعان بخفة.

أكملت جدتي، وكأنها لم تسمع، من حيث انتهت: أمس كان يوم تسعة الشهر، وهذا يكون وقت القران التاسع، ما يسمّى ببرد الأزيرق، ثم مدت كفيها بانفعال وعلا صوتها كأن صبرها قد نفذ: «وإلا أنا غلطانة يا عرب؟». هزّ رأسه؛ «أبد ما غلطتي، هذا هو»، فحدجته أم كنعان، ثم نظرت إلي، كأنها تسأل: ما هؤلاء المجانين؟ استطردت تذكره بأنه، في تلك السنة، علمها عن قرانات القمر بالثريا، عن القمر الذي يتقلّب في منازل النجوم، وكل يوم يدنو منزلة أو يرتفع، «ومن يومها ما شفت قران واحد يمرّ إلا ليلة البارحة». أي، طول تلك السنوات كانت في بردٍ بادي، وللتو بالأمس رأّت ما بعده. «وأنا نسييت العليم اللي خذيته منك، وأنا معذورة، أريدك تطمّني يا قران اللي بيبي وراه؟».

تمتم بوكنعان: الله المستعان. كان ينظر أرضًا ويهز رأسه مع كل كلمة ينطقها. بدا كمن يدون أفكارًا خفية في رأسه. رفع أصابعه مثل عصا الدرس. «شوفي يا أم خليف، هذا القران اللي شفتيه أمس، هو عز الشتا، الأزيرق، وهو خاتمتو بإذن الله، أما الجاي بعدو، يوم سبعة من الشهر المقبل، حرّوة هاليوم، ما هو بشرط اليوم السابع تحديدًا، راح تشوفين القران السابع. ولو بحرتي للسما من متسان مظلم راح تعيّنين قران سابع، اللي البدو يسمونو: قران سابع مجيع وشابع. تعرفين وش معناو؟».

اتخذ صوته منحي تبشيريًا، وغمغمات جدتي تستحنه على مزيد من الشرح. أخبرها بأن الأرض، حينها، تبدأ تتنفس، وتسلّك دريها إلى الاخضرار، لا هي بالجائعة ولا بالشبعي. وجوع الأرض أو شبعها إنما محكوم بما هطل إلينا من مطر في قرني الشتاء السالفين. وبالتالي، فالماشية، إن كانت ثمة ماشية ترعاها، قد يجد أولها ما يأكله من عشب الأرض، في حين آخرها لا يكاد يجد شيئًا. ثم، في اليوم الخامس من الشهر الذي يعقبه، ندخل في القران الخامس، حيث يسمّيه البدو: قران خامس بالربيع طامس.

تخشبت جدتي إزاء ما يقول، كأن حبلاً يشدها إلى أسفل، كأنها لا تصدق.

«يعني يا أم خليف، العشب بعون الله يظهر، والأرض تخضر، ربيع على مد نظرتس. يتساوى الليل مع النهار، والجار يسهر مع الجار، من غير شبة نار. أما المواسم اللي راح تعقبو ما عليتس منها، كل شي بوقتو». قال إن ألزم ما عليها الآن أن تحتل القران التاسع ببرده، حتى تصل إلى القران الأقرب؛ السابع، مقتبل الربيع، فلا يشغلنها الخامس.

بعد أن سكت، بحلقث في بوكنعان، بحلقت طويلاً، كأن عينيها تجاوزتاه إلى ما هو أبعد، طال صمتها، فرفع عينيه عن الأرض محدقاً إليها. بدا كأن شيطاناً ركبها. رفعت إصبعها، تركته عالقاً في الهواء، وببطء مثل طفلة تتهجي الأحرف همّت تقول، لكن صوتاً لم يخرج منها، ثم مضعضاً خرج صوتها، مثل مسامير تتفلت من قطعة خشب: «يعني.. اللي.. بعد كل هذا اللي شفته.. ربيع؟».

أوماً بوكنعان. ارتفع إصبعها في المدى كما لو كانت تصف شيئاً مهولاً، وبلا قصد خرج صوتها، هذه المرّة، صائحاً، كأن أحبالها لم تعد تحتكم بأمرها؛ «الربيع يا بوكنعان؟ الربيع ما غيره؟».

ربيع. بعد هذا كله ربيع. عدّيت الشتا بطوله. يعني الربيع قَرَب.. أقرب من اللي قبله. طوال الطريق، ما كفت حمضة السحاب تردد تلك الكلمات. من بيت بوكنعان إلى بيتنا لم تصمت. مرّت حول البيوت التي قطعتها في طريق الرواح فلم تعن لها الآن شيئاً. تعثرت قدمها عند الحفرة المنقوعة، وترنحت في خطوها، ولم تجد يداها سيارة حسين لتستند إلى صندوقها فلم تأبه. عرجاء أكملت سيرها، تُسرع ما أمكنها.

كانت كمن أوغلت تسير في نفق مظلم، وفجأة، لاح في آخره الضوء. حين توقفنا قبالة البيت، التفتت نحوي، وقد تهشم صوتها: «الربيع بعد كل هالسنين!». كانت عيناها مبللتين، وثمة مخاط يلتصق في قماشة برقعها.

كان الربيع، أخيراً، في طريقه إلى حمضة السحاب.

قران تاسع

برد لاسع

منذها، اشتد بردها، رمت شالها القطني، ارتدت المعطف الطويل، أرجعت عدّة جلوسها إلى أدراج المطبخ، تخلت عن قعدة الحوش إذ لن تفوتها أية علامة حتى الشهر القادم؛ موعد القران السابع، وفي صالة البيت صارت تقضي جل يومها، كأنما أرادت أن تكون مرئية فنشاطها فرحتها، وكانت المدفأة، في زاوية الصالة، موصولة إلى الكهرباء، تنث ضوءًا برتقاليًا يشيع الحرارة في المكان، خالطًا إياها ببرد المكيف التي تهدر، حيث لا ترتفع درجتها عن الاثنتين وعشرين. وكثيرًا ما استيقظت حمضة من غفوتها مرتعشة، وأمي التي هبت تبحت في بواقي الفناجين والأكواب عن أثر تتركه خلفها زوجة محمد، درءًا لعينها، إذ منذ دخولها أوديت أفراحنا، التي مثل مصير أسلاك الزينة المنصوبة فوق البيت حيث طويت ومضى بها العمال، تحلف لجدتي بأن ليس سبب رعشتها إلا نومها تحت مكيف الصالة، وتحلف حمضة: لا والله، إنها في قران تاسع، هذا برد الأذيرق وقد مسّها.

وشروق، زوجة محمد، الوافدة حديثًا إلى البيت، راحت، بعينيها الغائرتين خلف النقاب، ترمق ما يحدث بغرابة حاولت مداراتها. ثم، وفي ربكة، تعتذر لأمي؛ إنها من تنسى أن تطفئ المكيف بعد قيامها من مكانها، فهي لا تعرف بعد ما خطب جدة زوجها. وتربت أمي على كتفها؛ لا عليك، حمضة دائمًا هكذا. ثم تتلاشى من رأس أمي نصيحة الهايشة، ترمي الباقي مما شربت شروق في مجلى الغسيل، فلا ترشّنا به عل حرارة عينها تطفأ، إذ لا تبدو هذه الفتاة الضئيلة، التي بالكاد تتكلم، حاسدة. «حرام عليج»، تقول للهايشة، فتهاز الأخيرة رأسها رافضة سماع المزيد؛ دخول شروق وأهلها إلينا دخول شر.

إذ في صبيحة اليوم الذي أعقب العرس، حين سرت وجدتي إلى بيت بوكنعان، حين تلقت بشارة ربيعها، كانت الجهة المسؤولة عنا قد أوقفت تجديد بطاقتنا، وقرنت التجديد بشرط وحيد، شرطٍ مستحيل. نسأل الهايشة كيف ذلك، فتقول إن شروق محظوظة، هذه التي تحمل إحصاء ١٩٧٥ لدى الجهة المسؤولة عنا، مما يعني أن حصولها على الجنسية حلم ليس تطوله أبدًا، عكسنا، نحن الذين نحمل إحصاء يثبت تواجدها منذ العام ١٩٦٥، المحظوظين الذين لدينا عدد من الامتيازات في الجهة المسؤولة عنا، فيبتسم أبي لسيرة الامتيازات وتكمل مريم، ذلك السبب هو ما دعا شروق وأهلها أن يناسبونا، وإلا كيف تزوج امرأة ابنتها برجل لا عمل ثابت لديه، ولا يملك سوى بقالة لن تصمد طويلًا. ربما فكروا أنها ستُضاف إلى ملف أخينا، وحينها، ستنجو واحدة من بنات أم شروق. «على أساس الجنسية كانت بجيوبنا» تقول أمي، فتُغلق ذلك التحليل، الذي توقن الهايشة أنه يفسر ما حدث؛ إننا عبثنا بالملفات، وتسلفت إلينا إحصاءات ما كان لها أن تخالطنا.

أعادت حمضة ترتيب محتويات خزانته. حينما ينتصف الليل فيهجع البيت، كانت تتربع أرضًا قبالة الخزانة، تمد ساقها عن آخرهما، ثم تبحث عن الخفيف من ثيابها لتضعه في المقدمة، والثقل تبعده، لكنها لم تجد قماشًا خفيفًا، ولا حتى قماشة واحدة. وكما لم تفعل من قبل، أزاحت أغراض عمتي وضحة وراء، لتدني الصندوق القديم مكانها. قبل ذلك، لم تكن أغراض وضحة تمسّ، إلا حين تُخرج جدتي، في نوبةٍ من الذكريات، قطعة منها لتفرشها بجانب وسادتها وتنام، أو تدفن فيها رأسها لتشم فيها الباقي من رائحة ابنتها وتبكي.

شابت فرحتها ربكةً طالب يدخل إلى المدرسة المتوسطة في يومه الأول، كأنما لا تعرف ما عليها فعله، ما خطوتها التالية في الغد. يجالسها أبي، يهَمْز رجليها، يعاتبها على جلوسها أرضًا، يبدو نائيًا، شاردًا في مكان آخر، تقول له: «الربيع يا خليف جايني»، فلا يبدي ما تتوقعه من فرح، يكتفي بهز رأسه؛ الله يحييه.

وكما لو أنه قد خلف مكان أمه، كنت أجده في الحوش؛ مرة واقفًا عند العتبة، يداه معقودتان خلف ظهره، ومرة يجوس في المكان. لم يظهر بهيئة المتعجل، الراكض، الذي يخاف فوات أمر ما. بعد أن عدت وجدتي من بيت بوكنعان، تجاسرنا لسؤاله: ليش؟ كان محمد قد عاد من إجازته، وعاد البريق يلتمع في عينيه، انشدَّ إلى أبي، الذي مرَّ على رأس الفكرة فقط؛ رفضوا التجديد إلا بشرط، كأنما ليس يفهم، الآن، كيف عساه يشرح لنفسه تعقيدات الأمر ودهاليزه، كأن قوانين العالم تتحداه أن يفهمها. حتى ونحن نعرف أن أبي لا يملك أن يفعل شيئًا إزاء الوضع، وما من أحد يستطيع أن يفهم، لكننا لطالما تعلقنا بفكرة أنه يخبر الوضع بتعقيداته أكثر منّا، حتى لو كان يخترع المفاهيم، كما لو أننا نحاول بناء جدار، وإن بدا هشًّا، كي نستند إليه. قال أبي إن الشرط، وكما حدث لبطاقة جدتي حمضة، ولشهادة الهايشة الجامعية، أن نوقع إقرارًا بصحة ما سيرد في البطاقات. سألتُ أمي: «وإذا ما وقعنا؟». أرادت أن تسمع جوابًا غير الذي تعرف؛ ليس ثمة بطاقات، وعليه فلا علاج، والحسابات البنكية ستتوقف ولن نُخرج منها فلسًا، لن نستطيع تجديد رخص سوقنا، لن يتمكن إخواني من العودة إلى مدارسهم، لن يُقبل واحد منهم موظفًا، وسيُسرَّح أبي من عمله بغير مكافأة نهاية خدمة. ثم نظرنا نحوي، أبي وأمي، يرثيان باكراً الفرصة المهدورة؛ عدم تمكني من الدراسة في جامعة الإسكندرية، إذ لا جواز سفر.

كان، حينما أراه في الحوش، يسألني: «شمسهرك؟». قلت إنها طبيعة نومي، ثم إننا في عطلة. هز رأسه ثم رمقني، «لا تحاتي، بإذن الله راح تدرس برّا. مسألة وقت»، ثم همس، لنفسه ربما، بأنه غلطان، ليس من مذنب غيره. لم أعرف بمَ أجيب إزاء حفل جلد الذات ذلك. قال إنه أخطأ بعدم إرساله باكراً. ليس ثمة مجال للتخطيطات طويلة الأمد. يركبه الخطأ من رأسه إلى رجليه. أشار برأسه إلى الداخل؛ «روح اقعد مع إخوانك داخل، ولا تشيل هم. الله كريم». ثم رنا إلى عمود الإنارة، كأنه الخطأ الذي بسببه عوقبنا. وكان ذلك ما نملك، أن نرّص أسبابًا، أيًا كانت، تفسّر غير القابل للتفسير. وأنا، لم أشل همًّا، أحسست كأنني طافٍ فوق سطح بحر راكد، لست أشعر بثقل جسدي. ربما كان ذلك في بداية الأمر فقط.

بدا الأمل، في حال حمضة، فعلاً غرائبيًا، غير مفهوم، كأنه ينبع من إرادة خارجية، مفصولة عن الذات فيستحوذ عليها؛ كمحاولة الغارق بإرادته أن يطفو. بعدما كانت تجلس في الحوش ذابلة، كأنها تعرف أنها في انتظار شيءٍ لن يجيء، بدت الآن وكأنها ابنة السابعة عشر.

لم يكن حالها يختلف عن الهايشة، في تلك الظهيرة، وقد توغلنا في قلب المنطقة التجارية؛ ضجيج السيارات والباصات، المجمعات والأسواق الشعبية والعيادات الطبية، البنايات السكنية، المارة على أرجلهم، أفواج بشرية تطوف في كل مكان، حتى وشمس أغسطس تسفع وجوههم. تكلمت والهايشة عن الخيارات الجامعية المتاحة لي، في حال فات وقت التقديم، وتأخر إصدار البطاقات والجواز. ربما كانت لي فرصة هنا. سألتني، وهي تفتح سحّاب حقيبة يدها، وتتناول نقابًا تقبض عليه بكفها: «شنو اللي تفكر فيه؟». كانت تنظر باهتمام، وبدا صعبًا أن أتفاعل معها بجدية. أحسست بخطأ ما وهي تحكي؛ إنها ساخرة على الدوام، بنبرة صوتها، بتعابيرها، بغضبها أيضًا. حتى بمستقبلها ما كانت جدية، أو على الأقل هذا ما كانت تظهره أمامنا. كانت قد تخرجت من الجامعة قبل عامين. ودائمًا ما سألت أبي، دائمًا ما رجته أن يجد أيّ واسطة، أيّ حل يمكنها من استلام شهادتها المتخمة في إدارة الجامعة، من غير أن توقع إقرارًا على امتلاكها جنسية ما لا تعرفها نظير استلامها للشهادة. نبرة صوتها وهي تسأله عما إذا كان ممكنًا أن توقع على الإقرار بدت كمن توصيه أن يحضر غرضًا من الجمعية، كمن تتسلى في صالة البيت: «يمكن ما يكتبون فيها شيء»، وتهز رأسها بطريقة طفولية، على نحوٍ يوحي بإدراكها اعتبارية الطلب، إذ لن يوافق أبي أبدًا، وحتى لو وافق -وهذا ما لا يمكن حدوثه- فإنها لن تجازف.

اقتربنا من العمارة السكنية قديمة البنين. كان ينتصب بجوارها مجمع تجاري، حديث الطراز، له واجهة بلورية، أو شبه زجاجية، تنعكس عليها أضواء بعض المحلات الخارجية مضيئةً لمعانًا، على العكس من العمارة الداوية التي بجانبها. عصرت الهايشة النقاب في يدها وهي تسألني أن أدخل إلى جامعة خاصة هنا، وأقول لها: لا أدري. تطرح اسمَ جامعة مقدورة التكاليف، تخصصاتٍ لا معنى لها عندنا؛ تسويق، وتصميم، تخصصات رفاهية

يُحرم/يُمنع عليّ دخولها. ذلك اليوم، بدوت كمن أتعرف إلى وجودها للمرة الأولى. كنت خجلاً أمامها، ردودي مقتضبة، على عكس اللحظات التي نتبادل فيها النكات. لم تكن مريم اللوامة دائماً. رفعت إصبعها محذرة: «دربالك تصير مثل محمد، وتقول بقعد على شهادة الثانوي، دربالك!». ثم التفت إلى المرأة، ولبست النقاب فوق ملفعها، أحكمت حدّه على أنفها، وعدلت ميله إلى الوراء. أردفت: «أنا غير، أنا وضعي مؤقت، لين أقدر أطلع شهادتي».

مندوبة بصالون؛ هذا ما عثرت عليه الهايشة في إحدى المجلات الإعلانية. سألتها محمد، يومذاك، عما يعنيه ذلك. ورغم أنه تخصص ليس متخيلاً أن تعمل به يوماً، ولا يناسب شهادتها الجامعية؛ رياض أطفال، فإنها انبرت، بحماس، تشرح؛ أن تتصل على أرقام عشوائية وتحاول تسويق منتجات الصالون، لا يوجد أي احتكاك مع الزبائن إلا التي تريد شراء المنتج. إنه عمل مؤقت ريثما تستلم شهادتها الجامعية. فهبّ محمد: «تخسين». وقتها، كانت جدتي حمضة تتناول إفطارها. علقّت الخبزة في الهواء، بين حلقها والصحن. أردف: «آخرتها تشتغلين بصالون؟ وين قاعدين؟». زمّت الهايشة شفيتها، قالت إن أمرها مرهونٌ عند أبي وحده. وقبل أن يتضخم الحدث، ركضت إلى أبي، الذي شقّ لها غرفة تخصّها، الذي استثناها من قرعة المدارس وجعلها تنجو من التخرج في سنّ يفوق أقرانها. وللمرة الأولى قال أبي لابنته الوحيدة: لا. ليس لها حاجة إلى هذا العمل، وبخاصة أنه بغير تخصصها الجامعي. لم لا تنتظر شهادتها أصلاً؟ سألت الهايشة مستنكرة: أنتظر ماذا؟ لو أن الجامعة ستمنحها شهادتها لفعلت قبل سنة، منذ أول مرة ذهبت فيها إلى الإدارة. ثم بررت رغبتها بالوظيفة بمللها، بحاجتها إلى دخل مستقل، إنها مثل البقية تتمنى الحصول على أشياء دون طلبها. ما اقتنع أحد. صفقت الأبواب، وما عادت تجالسنا خلال وجبة طعام. وإذا ما خرجت، تحاول في أبي، ترجوه إن كان ولا بد فليذهب إلى الجامعة، ويوقع على الإقرار ويستلم و«يفتك». إن كان أبي حريّف صبر، فهي ليست كذلك. من الممكن، في النهاية، ألا يطلبوا في التوقيع أن تقرّ على انتمائها لجنسية ما لا تعرفها ولم تنتم لها يوماً. جائز أن يكون تخوفنا بلا معنى. رمقها أبي: «تعوزني من إبليس»، ثم حاولت في محمد، لكنه صمّ أذنيه عنها. هاجت في وجهه: «على الأقل أحسن منك يا الفاشل، مو ٢٤ ساعة بالشارع

وتويت، لا فائدة ولا عائدة». صفعها. شدّها من شعرها. صرخت، حاولت التملص منه، التممنا جميعًا، خرجت أمي من غرفتها، فرقنا بينهما، سارعت جدتي من الحوش، حذفت نفسها بينهما، حد أن محمدًا ضربها على قفاها مخطئًا فترنحت، بينما هي تحاجز عن الهايشة وتصرخ بأمي: «خوذوها الغرفة، سحبيها». ويزعق محمد: «هذا جزاي أبي أعزكم الله يطيح حظكم». أمي تجرّ الهايشة من خصرها، تسحبها إلى غرفتها والهايشة تهوم بيديها في الهواء منتحبة، تقفل الباب دوننا. على حافة السرير جلست أمي، كفاها مضمومتان إلى حضنها، تنظر بقلّة حيلة للهايشة، حيث شعرها المنفوش، وجلوسها أرضًا تسند ظهرها إلى قائمة السرير، تضم ركبتيها بيديها وتبكي. بدتا مثل خادمتين مسترجعتين إلى مكتب استقدام العمالة بعد حفلة ضرب دامية في بيت مخدوميهما. ودّت أمي لو تواسيها، لو تقول لها: اتركي ما تربدينه، خلاص، لعلّ في الأمر خيرة. قالت: «أنا كنت مثلج قبل، صحت وبجيت، وطلعت روعي». بعد أن تعطلت دراسة أمي وإخوتها الخمسة، في ذلك الزمان، صار من غير المتاح لهم الدراسة إلا في المدارس الخاصة. قالت إن أباه المسنّ لم يقو على دفع المصاريف للكافة: «شايب وراعي حلال، تعالي فهميه إن دخل عيالك مدارس خاصة. كنت مثلج، راح أموت»، فأن تدرس في مدرسة غير تلك التي بها صديقاتها، وألا تدخل تخصص اللغة الفرنسية، تلكما فكرتان لوتا قلبها. رجت أباه، إخوتها؛ إنها في السنة الأخيرة. كادت الأمور تسير على ما يرام، حتى دخلت في صراع محوم مع أخيها الأصغر، الذي أراد أن يكمل دراسته أيضًا، فغلبها، بلا حاجة إلى صفّ حجة واحدة. قال إنه يريد فوافق الجميع. «قالوا لي وإن تخرّجتني راح تقعدين بالبيت لين يجي نصبيج، شفايدتها الشهادة وقتها؟». جاءتها أمها تمسح دموعها وقالت: «ما غلطوا، هذا أخوج، فرحي له»، ثم قبّلت رأسها وانتهى الأمر. وهأنذا عشت وكبرت ولهيت ونسيت، قالت أمي. ها هي الآن قد تجاوزت ذلك، وها هي تعيش دون أسى على ما فاتها، لكن صوتها كان يضمّر تهيدة طويلة، أسيفة، وفي عينيها لمعانٌ، كأنها تنظر إلى قلب الماضي الذي لا يزال في رأسها حيًّا. التفتت إلى الهايشة، قالت، وكما لو أنه مسارٌ حتمي: «شتسوين بعد هذا أخوج».

لكن الهايشة، في اليوم التالي، راحت تبكي عند جدتي، مدركة أن الحل ليس في قصة أمي، إنما بين يدي حمضة، التي في زمنٍ سابق، وفي أحلك أيام عائلتنا؛ وقتما بقي أبي بلا عمل ريثما تنتهي التحقيقات بشأن أسرهِ، وقتها فرشت حمضة بسطة في سوق القيصرية. وغير هذا، فقد حان الوقت لاستغلال شبهها بعمّتي وضحة. ولم تعدم الهايشة حججًا لإقناع العجوز؛ ليه يسوون چذي؟ بشتغل رقاصة يعني؟ هذا إنتي اشتغلتي أول! وتؤمن حمضة بهزّات من رأسها مع كل كلمة تقولها الهايشة، وتذكّرها، علاوة على ذلك، بأنها في شبابها حملت بيوض الدجاج في أقفاص من الخوص فوق رأسها، ومضت بها، حافية الرجلين، حيث سوق الصفاة في الديرة. تؤيدها مريم: «صح، وهم مثل البسطة اللّي بسوق القيصرية. بس أنا راح أشتغل بمكان كله حريم». شرعت جدتي تساعدها، دون أن يههما -وربما لا تذكر- بأن السبب الرئيسي في إزالة بسطتها كانت الهايشة نفسها. «يا يمه»، أشاح أبي بيده، وظلت حمضة تحاجج، وأبي يرد، حتى لان. رجع محمد يلوم مريم ثانية، لكن لا فائدة تُرجى من هذا البيت غاوي الفقر. تتمم قبل خروجه؛ «ألعن أبوي أنا اللّي مهتم بهالبيت»، ومنذها، ما تكلمنا قط.

في الطابق الأرضي للعمارة الداوية، في زاويتها، صالونٌ نسائي، مغطى ما حوله بباب بارتشن، كي لا ينظر الرجال إن مرّوا قريهن. همّت الهايشة تفتح باب السيارة، وقد لبست نقابها، قالت: «ياللا سلام». سارت، لا تلتفت إلى ناحية، تسوّي ميل النقاب، إذ آخر ما ينقصها أن يتعرف أحد إلى وجودها في هذا المكان البائس. حتى وهي تقول: «بس راح يعرفون بالنهاية، الجهرا صغيرة»، وكأن كل ما بوسعها الآن أن تؤجل أمر انكشافها. ما تطرقنا، طوال حوارنا، لأمر بطاقتنا، رغم أنه بانتفائها تستحيل الدراسة وإن كانت فوق سطح البيت. واصلنا حديثنا، باتفاق ضمني بعبثية الموضوع، كما لو أن شيئًا غامضًا يدفعنا لمواصلته، رعبًا يكذب شكل حياتنا الجديد، فيجعلنا ننجرف لفكرة أن شكل حياتنا سيعود إلى ما عليه، إلى حاله القديم، ولن يتغير إلى ما هو أسوأ منه، كما حدث لبويوسف وغيره من المعارف.

كان الأمل، في نهاية المطاف، مثل عشبّة ضارة؛ شيء لا بد من تواجده.

فكرت، كثيرًا، في جدتي حمضة؛ كيف عساها تستقبل الربيع؟ قبل ثماني سنوات، ذات يوم جمعة، هرعت من الحوش متهللة: «هذا سرب قطا، ياي صوبنا، والقطا ما يفرخ إلا بالربيع».

كانت تلك هي الجمعة الثانية التي يلتئم فيها الناس، بعد الصلاة، في ساحة واسعة خلف بيوتنا. كانوا يقيمون اعتصامات تطالب بحقوق المواطنة. في الجمعة الأولى، اكتشف أبي عبر متابعته لتغريدات محمد أنه تواجد هناك. ثارت غضبة وصيحة، وحاجزت بينهما جدتي حمضة، لكنهما دفعاها عن طريقهما. اسألني أنا اللي أكبر منك، كان يقول لمحمد، وكأنه ينظر إلى ذاته القديمة فيه. كان مؤمنًا بأنه ما إن تطأ قدماك أرض السجن، حتى ينساك العالم الخارجي تمامًا؛ ربما يتذكرك في يومه الأول، الثاني، الثالث، وبعد ذلك؟ ستكون موضوع ندوة، ثم تُنسى مثل ملف قضية في الأرشيف، وستنطأ قضية أخرى ينشغل بها العالم. «الناس ذاكرتها ذاكرة سمكة»، كان يقول، في ظرف شجار نستيقظ على مثله بين يوم وآخر، في تلك الفترة العصيبة من حياتنا، التي بدت شبيهة بمساجلات البرامج الحوارية. في الجمعة الثانية، قبيل الصلاة، كانت قوات أمن الدولة في الساحة. توجس أبي في دربنا إلى المسجد، وظل طوال وقت الخطبة يبحث بعينيه عن محمد، وإن وجده اطمأن. عدنا بعد الصلاة جميعًا، وكان أبي مرتاحًا لسير محمد في الاتجاه ذاته، حتى دخلنا البيت، فتبدل اتجاهه في رفة جفن. سارع أبي يتصل به قبل أن يتجاوز العتبة؛ وقت كانت موجودة. ردّ محمد: «ماني رايح بعيد، بتقهوى عند يوسف، وأرجع، ماني طفل». كانت أمي في المطبخ، تجلس إلى الطاولة، تقطع ما بدا بصلاً وخيارًا وطماطم. ظلت تروح وتجيء من المطبخ إلى الصالة، في يدها السكين، تسأل عن عودة أخي. بدأت تقضم الاحتمالات، ومحمد ما عاد يجيب على الاتصالات. الشوارع صامتة كصمت من أخرسه الذعر، ثم تناهت أصوات محملة بالقلق. إثرها خرج أبي، جميعنا نطل من ورائه. رأينا مجموعة رجال تركض، معفرين بالتراب، هاربين من شيء ما. جرى أبي إلى الداخل، يسب ويشتم محمد، يعاود الاتصال. سواها ابن الكلب وأنا ناهيه، أقسم بالله لألعن خيره الخير. حاولت أمي تكذيب قلقها، تبيست عند باب المطبخ حينًا، ثم عادت؛ تقطع ما تحت يديها بغير تساؤ. خرجت جدتي من

غرفتها، بعد قيلولة ربما، تسأل: «شصاير برا؟»، حثت خطاها نحو الحوش، ضيقت عينيها لتبدد غبش رؤية ما بعد الصحو، وتمعن النظر، فلاحت السحائب الدخانية.

فغرت فاهها، انفرج حاجباها بعد تقطية، لهتت، هللت؛ خليف يا خليف، حسبناها تبشّر بعودة محمد، «هذا سرب قطا، ياي صوبنا، القطا ما يفرّخ إلا بالربيع»، غابت في غرفتها، خرجت تسدل البرقع فوق وجهها، لم ترّ العتبة، فتهاتت مثل ثوب يقع من مشجب، بيديها ورجليها اتكأت كحيوان ونهضت تهزول بساقين تعرجان، شرعت الباب الخارجي على آخره واندفعت. وأول ما حطت قدمها في الخارج سحبها أبي من كتفها، فأخذت تدور حول نفسها. قال: «يُمه يمه، أي قطا وأي زفت؟»، وصاحت تتملص منه: «أتركني خليف، هديني». في لسان الأسفلت وقفت، يحكم قبضته عليها، والدخان من خلفها مثل غبار رمادي، مثل سرب قطا مرمدّ اللون.

«مصعت إيدي، غربال، خلني أشوف. چا تحرميني؟». جرّها مزمجراً: «دقوا على الكلب، خلّ يرد، دقوا»، فسكتت. أضحى صوت تقطيع الخضار صاخباً، كأن أمي تشقّ الطاولة بسكينها إلى نصفين. وفجأة، فزت الهايشة من الكنبه، هاتفها في يدها، تشهق؛ «يُيه، الحق، الحق، محمد هناك، منزل بتويتر». حدق أبي مطولاً إلى الشاشة، فمه مفتوح عن آخره، يلتمع للعباب فوق شفته، يكاد يسيل. وحمضة تمد رأسها نحو الهاتف تتساءل؛ شنو؟ فانفجر صائحاً؛ «يلا، الحين يمسكونه، رحنا فيها، خلاص، تعالي اسمعي يا أم محمد». وفي لحظة نحكي عنها حتى اليوم، نهضت أمي من مكانها، فانقلب الكرسي إلى ظهره، كان وجهها مصفراً مثل ورقة قديمة، السكين في قبضتها، هرعت نحونا، والعتبة التي عبرتها آلاف المرات من قبل لم ترها اليوم، بقدم تجاوزتها وبالأخرى ارتطمت بها. طار جسدها مسافة أمتار، طارت مثل ساحرة تلوح بعصاها، غير أنها كانت تلوح بالسكين، قبل أن تحط على بطنها في مقدمة الصالة، فيغور نصل السكين عميقاً في خدها.

عاد محمد، مشعثاً، يقبض في كفيه على نعليه. وقف عند بقعة قانية اللون في السجادة. وعند ركبتي أمي كان ينتحب، يقبل يديها ورأسها ورجليها، وهي بوجه مضمد من وسطه

تربّت على يده وتبكي، ترجوه ألا يحرق قلوبنا ثانية، وتعيد كلمة السجن أكثر من عشر مرات، فيما هو يُمعن في النشيج مهتزاً جسده، بما يفوق الموقف. ربما منذ ذلك اليوم، عرف محمد نفسه، وأدرك موقعه من العالم.

«الفرحة تنعاف لو ما لقيت أحد يهلهل معاك بيها». دأبت حمضة السّحاب، طيلة أيام انتظارها للقران السابع، تقول ذلك.

ظنت، بعد عودتها من بيت بوكنعان، أنها مُلاقية فرحة ما شهدت مثلها من قبل. لكن البيت الغارق في مأساويته فيما هي توشك أن تستقبل ما طال انتظاره لم يُلق لها بالأ.

كانت تُمسك بالهاتف الأرضي، والهايشة تقلّب لها في دفتر الملاحظات حيث أرقام رفيقاتها، غير أن واحدة منهن لم تُجب، إما خطوطهن مقطوعة، أو مباعه؛ كأن يجيها عامل هندي أو طفل. وليست لحمضة الفطنة التي تؤهلها لإدراك أن الهايشة تتعمد الخطأ في الرقم، لأن: «عسى ما شر تنشر خبالها بزّا البيت؟ هي وربيها هذا!».

قلّبت مسبحتها يميناً ويساراً، تكرمش وجهها، أخذت تعدد أسماء صاحباتها، تحاول أن تتذكر الباقيات منهن، ثم لم تجد أحداً. قالت: «دقي لي على أبو صالح»، فشرعت أمي تبحث في الفاير عن رقمه.

رغم أن حمضة لطالما بدت مثل فرع وحيد، لا اتصال له بالبقية، أو مقطوع من شجرة كما في المثل السائد، فإن لها إخوة وأقارب. أحدهم بوصالح. وآخر يُدعى أبو عيد، يستقرّ في لندن، ولديه ملتقى شبه سنوي يجمع فيه عدداً من أبناء العشيرة الذين «طشّرتهم القاع». كان يتعرف إليهم، ويولم لهم، لا يتركهم في فرح ولا ترح، وكلما سألته الجدة في مكالمتها له: «شك بيهم وبدوخة الراس؟» أجابها أنه لا يريد أن يموت ميتتين؛ مرة في ديار غربة، وثانية حين يُدفن دون أن يشيعه أحد من الأهل والصّحاب. فكان له ما أراد؛ مات ميتة واحدة.

وفي حين يتوالى رنين الخَطِّ من هاتف أمي، سألتني جدتي: «تعرف بوصالح». عقدت أمي حاجبيها مستغربة: «شلون ما يعرفه؟». قالت جدتي: «تري كان عايش هنا».

كنا نعرف ذلك أيضًا، مثلما نعرف أنه عاش وأسرته في الصحراء، حتى والمكان يتحول إلى مدينة لا ينقطع عن الرواح والمجيء إليها، حتى وهو يعمل بناءً لبيوت المدينة، حتى والعام ٩٠.

كانت جدتي حمضة، كلما عنَّ لها أن تعيد علينا قصته، تذكرها بحياد، كأنها قصة رجل سمعت عنه، أو أن أمره ما عاد يعينها. بعد الاحتلال، قبضوا عليه وابنه مرتين، وصحبوهما إلى سجن طلحة. «تعرف سجن طلحة؟». قلت إنه سجن معدٌّ للإبعاد، وكانت تلك مفارقة. تكدس هذا السجن بعد الاحتلال، غصَّ بكثيرين، ولمن هم مثلنا نصيبٌ فيه، قالت، وكل من أشتبته به «چصوه». والله وحده يعلم متى سيحاكم السجن وبأي تهمة. «عاد بوصالح، حال الضيم حاله»، كل ما في هذا الرجل مدعاة شك أيامها، انبرت توضّح: «لا عنده أوراق ولا سخام»، ثم كركرت ضاحكة، وارتج كتفاها، كما لو أنها تتخيل أخيها الكهل مسحولاً.

في حبسته الأولى أفزعوا الدنيا، بحثوا عن أي أحد يستطيع الوصول إليه، جاءت زوجته المشعثة من الصحراء، ترجو أهله بالتصرف. توصلوا، أخيرًا، إلى أحد ساكني المنطقة التي عمل مقاولاً في بيوتها. استطاع هذا الرجل أن يتوسّط له ويُخرجه. في المرة الثانية، حُسم الأمر، وما عادت ثمة احتمالية للبقاء؛ عليه أن يترك خيمته ويرحل. الباص الذي حمل مثله سيحمله وأسرته هذه المرة. سألتني: «تدري وين راح؟». تسمّي الهايشة المكان الذي رحل إليه الخال بوصالح: هناك، مع إشارة بسبابتها إلى البعيد، وأحياناً: كندا أم النخل. أجبته: الناصرية. ومنذ ذلك اليوم لم تزه. قبل ما يقارب عشر سنوات اتفقا أن يلتقيا في الأردن، لكن معاملة استخراج جواز حمضة رُفضت.

بالنسبة إلى الهايشة، كانت تلك جذور ينبغي التعقيم عليها، ينبغي دفنها تحت أكوام من الرمال. إن أكثر ما أضرّ بنا، كانت تقول، هي تلك الجذور. كانت مؤمنة أن ما يحدث لنا ما له من سبب إلا هذا. هذا ما يجعل الناس تطعن في انتمائنا. ووقتما دخلت الهايشة إلى مدرسة

الحكومة، كانت تعود متعجبة من صديقاتها الجدد، اللواتي يسافرن إلى السعودية في عطلة الصيف حيث أخوال لهن هناك وأعمام، وأخريات لديهن جدات يشبهن حمضة تمامًا. مدهوشة كانت من كيف يُظهر الناس جذورهم الممتدة بعيدًا عن هنا للعلن؟ لم الامتدادات بشأن الغير ميزة، شيئًا طبيعيًا، وبشأنها خيانة يجب أن تُقفل عليها الأبواب.

تصلب حمضة ظهرها حين يردّ بوصالح على اتصالها، تصيح «ألووو..» وهو يصيح، كأن أصواتهما لا تصل إليهما إلا عبر ذلك. «يا بعد روعي صوتك»، تقول له، «نساني البعد عنك»، ثم يسألان عن أحوال الأبناء والأحفاد. «الربيع جايني يا بوصالح!». وبدا أنه لم يسمع، فصرخت: «الربيع يا بوصالح الربيع». كانت تلك آخر مكالمة بينهما، إذ في التالية سيرن هاتف أمي طويلًا قبل أن تتمكن من الإجابة، ثم وبعد أشهر سيموت جرّاء غيبوبة سكر، ولن يعرف أبدًا عما حدث لربيع أخته.

ليلتذاك، وفيما حمضة تبحث عن أحد تهلهل معه، زارتنا أم شروق. كانت جدتي حمضة تبدو نائية، تقلّب في مسبحتها، كأنها ليست تفهم شيئًا مما يقال. سألتني قبل مجيء المرأة: «إنّ تندل بيت عيدة»، أجبته: إي، لكن أم شروق دخلت فجأة. لم يكن في الصالة غيرهما وأمي، الهايشة، محمد وشروق التي غطت وجهها فور دخولي بالملفح.

ما عدا جدتي السارحة بعيدًا كان الجميع يبتسم. لكزت أم شروق أمي على فخذه: «قولي لهم شنو قلتي»، فضحكت أمي وهي تغطي شفيتها بالدراعة، مُحرجة، في حين تمسك بيدها الأخرى بصورة مصفرة. أصرت أم شروق: «والله تقولين»، والتفتت نحونا تشرح؛ هذا يوم كُنّا بالثانوي، آخر سنة، قبل لا ننطرد.

في غضون ضحكها، قالت أمي بأن يومذاك حضر موجه مادة اللغة الفرنسية الحصة، وجّه سؤالًا إلى الطالبات يطلب فيه قول جملة كاملة. رفعت أمي يدها؛ لو جارديان لو كيبي كويت سمير سعيد، فصفق مبهورًا. «للحيني أذكرها، استانس عليّ وايد، قالي براقو، وقعد يقول البت دي هاييلة». سألت الهايشة عما يعني ذلك. «سمير سعيد حارس منتخب الكويت»، أجابها محمد، فالتفتت أمي والهايشة إليه، لثوانٍ نظرت كل منهما إلى الأخرى؛ لقد

كلمها أخيرًا، وإن لم يرمقها. باعدت أمي بين أصابعها، أشارت إلى كل إصبع بما يمثله من رقم؛ أ، دُو، تُغوا، كاتغ، سانك. توقفت عند الرقم السادس، أغمضت عينيها، عصرت ملامحها، ارتفع الشرخ في خدها حتى امتد إلى حاجبها، قالت: «أستغفر الله العظيم»، ثم لم تتذكر. علت شفتا أم شروق ابتسامة حنين، راحت تهزُّ رأسها مع كلمة تتفوه بها أمي، وعيناها ترنوان إلى البعيد، وحين فرغت أمي صفت: «يلاً يلاً يا أم محمد، جهزي أغراضك، بكره نשלح من الديره ونروح فرنسا. هَلَبْت يعطوننا الجنسية». ضحكنا. أردفت بنبرة مسرحية: «الله! نخط لنا بيت بالريف، وكل أول صبح نحلب لنا بقرة، ويقومن علينا العجز اللي هناك»، ثم راحت تقلد نبرة كويتي غاضب: «أنتو شعندكم بديرتنا يا اللّفوا!». حتى محمد كان يضحك. رددت أمي؛ عزاه، كانت أيام، وتومئ أم شروق.

كانت أم شروق واحدة من بنات خوولة أمي. لم نرها كثيرًا، وإن جاءتنا تكون عجلي مثل سحابة، لا تتخطى عتبة البيت. وإن سمح لها وقتها تجلس، تشرب إستكانتي شاي ثم تمضي، بعد أن تأخذ من أمي ما جمعته لها؛ أرغفة الخبز اليابس، لأجل الأغنام التي ترعاها الأخيرة لتستفيد من حليبها ولبنها. إنها دائمًا مشغولة، وحتى في حكيها للذكريات، تبدو لاهثة، كمن تريد الوصول إلى الآن، كأنما ستضلُّ طريق العودة.

«أنا اليوم بفضحج يا أمينة وأمشي»، قالت، وضحكنا. أمكم فعلت كل شيء في المدرسة؛ اشتركت في نشاط الموسيقى تعزف على الأورج، لعبت السلة، مثلت في بروقات مسرح حتى إذا صار الأمر جدًّا وحضر العرض ممثلين كعبدالناصر الزاير وعبدالرحمن العقل هربت من الباب الخلفي. مسحتُ أمي بطرف يدها المضمومة عينها الدامعة بفعل الضحك، ارتج بطنها، ولاحت الصورة في قبضتها.

في الصورة، أربع فتيات واقفات في مواجهة الكاميرا، يرتدين لباس الثانوية القديم: ثوب رمادي دون كمين، وقميص أبيض. إحداهن تكشف عن شعرها، ذراعاها ممدودتان على أكتاف من حولها، وتمد لسانها خارجًا، والثلاث الأخريات يرتدين حجابًا أبيض مثلت الشكل؛ واحدة منهن، السمينة، تحمل سيماء أم شروق. المكان، في الخلفية، حوشٌ لمدرسة

قديمة الطراز كالتى درسنا فيها بعد مدرستنا الخاصة. فى الزاوية بيت شعر، نُصب لأجل نشاط مدرسى. سألتنى أم شروق: «عليك الله وبينها أمك بيناتهن؟». أشرت إلى واحدة من المحجبات. ضحكتا. قالت: اللى كاشفة. مستحيل، تلك فتاة ضامرة، شعرها مشعث أو كما تقول أمى: كيرلى يا حظى موضة الثمانينيات، وثمة قرطان فضيان متالأثنان يتدليان من أذنيها، وفى رقبتها قلادة. كان لباسها مغايرًا لمن حولها، مع اشتراكه فى اللون الرمادى. قالت أم شروق: «أمكم فنانة قبل»، تتفنن فى لبسها، وهذا الذى فى الصورة ليس زيّ المدرسة الجاهز، إذ كان أخوها المتوفى، قبل بداية كل عام، يأخذها إلى السالمية؛ شارع سالم المبارك، فتشتري الثياب والأزياء المختلفة عن البقية. كانت لديها عادة، تضحك قبل أن تعترف بها: «لازم أروح الصالون قبل أول يوم»، صالون المواهب، فى السالمية كذلك. تنهدت أم شروق، كمت على وجهها ضاحكة: «همّداي»، وأردفت: «چنى درام زباله».

التقطت هذه الصورة أواخر عامّ دراسى؛ عامهما الأخير هناك.

أشارت أمى إلى واحدة من الفتيات المحجبات. قالت إنها قد أضحت الآن مديرة مدرسة، المدرسة ذاتها التى دخلتها الهايشة قبل تخرجها. أما التى على طرف اليسار، فإن أم شروق تعرف أناسًا يعرفونها، وقد صارت موجهة فنية لإحدى المواد وصاحبة مشروع لبيع العباءات النسائية. تمتمت أمى؛ ما شالله. سألت أم شروق: «وأنا وإنّتى؟» فضحكت أمى وغطت فمها، ضحكت بخجل؛ وعيناها إلينا، كمن تعتذر عن ذلك، تعتذر عن زمن تراه حلواً، عاشته وما عشناه. بدت، وتلك التى فى الصورة، كممثلتين تؤديان الشخصية ذاتها بمراحل عمرية مختلفة. كان لها الآن فى مفرق رأسها شيبات عدة، وحين تضحك تصكّ دراعتها على طبقات ترهلت من جسدها، من بطنها، وما تحت إبطيها. ما عادت التى فى الصورة، تلك التى تنعكس أشعة الشمس على خدها اللامع، ورغم جودة الصورة المراوحة للون البنى، إلا أنه كان بيئًا أن ثمة احمرارًا فى وجنتيها، ليس خدها الآن، الجاف والشاحب، الذى يمتد فيه شرخٌ طولى مثل خندق يربط حاجبها بطرفى شفتيها.

أسدلت أم شروق النقاب فوق وجهها. كان نقابها بخيط بين العينين، ليس كالذي ترتديه ابنتها. حتى شكل عباؤها كان مختلفاً؛ تبدأ من رأسها مثل ثوب طويل بلا أزرّة، وخالية من أي لون أو زينة. وقبل أن تسير أمي إلى المطبخ لتأخذ حصتها، انتبذت بابنتها تكلمها، والأخيرة ترد بصوت خافت. لم تبدُ أم شروق مع ابنتها بالفكاهة نفسها التي كانت عليها معنا.

لطالما قالت أمي إن أم شروق صارمة مع أبنائها، وما كانت من قبل هكذا. بعد أن غادر زوجها إلى هولندا، كي يحصل على الجنسية، ثم يرسل طلباً لمجيء عائلته إليه، تحولت إلى ما هي عليه. كان زوجها يستعد لتأدية اختبار اللغة. كان رجلاً متشعباً، كما يحلو لأبي وصفه. إن تعلّم كلمتين فإنها نعمة. دخل الاختبار، وكان يحسّ بدقات قلبه تتعجل فعزاها إلى اضطرابه. بدا راسباً في الاختبار، وبجدارة. حاول النهوض من مكانه، لكنه عجز. تسارعت دقات قلبه، وقف، فسقط سريعاً. التموا إليه، حاولوا أن يعرفوا علته، فلم يقل إلا: «Heart»، ثم غاب في جلطة قلبية. لقد تذكر كلمة واحدة أخيراً، فمُنح على إثرها الجنسية. هكذا، ببساطة. ولأنه مُنح بداية جديدة، وعالمًا جديدًا، فقد قرر أن ينسى ذاته القديمة، التي لم يجنّ من ورائها غير العوز وعمى العين. تزوج بواحدة من بنات عشيرته، ممن سبقوه إلى هناك. لم يعد عنده ما يحتاجه هنا. فبقيت أم شروق وحيدة، برقبته أمٌ وعدد من الأبناء والبنات، تستأجر بيتًا فإذا ما غلا ثمنه شدت رحلها إلى غيره، تعمل صباحًا في حضانة، وعصرًا في دار تحفيظ للقرآن، وشهرًا تقف عند بيان الجمعيات الخيرية، وكل بضعة أيام تقود سيارتها إلى بر السالمي، حيث عزبة من الشينكو تأوي بها أغنامها، التي تدر لها حليبًا وإقطًا تسترزق من ورائه. لا وقت للراحة. تقول أمي إنها في العرس كانت ترقص بجنون، كأنها تحاول أن تتذكر الرقص، كأنها لم ترقص أبدًا.

حين مشت أم شروق إلى الحوش، هبّت جدتي تسألني؛ «أقلّك توصلني بيت عيدة؟» فقذف إليّ محمد مفتاح سيارته.

كانت أم شروق وأمي واقفتين عند الباب الخارجي. ما كانتا الفتاتين المرحتين في حكاياهما. بدا أن أُمي تشكو لها، سمعت أم شروق تقول إنها هي هكذا، تسير وفي درج سيارتها صورة من بطاقتها القديمة، وكل خوفها الآن من عدم استقبال الجمعية الخيرية لها إذ يشترطون بطاقة صالحة، وحتى معاشها لن تضمن استلامه ببطاقةٍ منتهية الصلاحية. تنهّدتا، واحدة تقول: الله كريم، والأخرى تردّ: ونعمَ بالله، يلاً مع السلامة. من خلفهما بدت شاحنة نقل عفش، ممتلئة عن آخرها بأثاث منزلي، تقف عند باب بيت بو حسين. تلك الشاحنة الثانية منذ صباح اليوم. ركبت أم شروق سيارتها السوبر ذات النافذة الأمامية المشروخة، كان صرير مكينتها كعجوز يعاني في لفظ كَحْتَه الأخيرة. مدت رأسها من النافذة صائحة: «تسمعين؟ تراني دافنة شايب داخل الكبوت». ضحكت أُمي، لوحت مودعة، كأنها لا تزال الفتاة المراهقة في حكايا أم شروق، ولما أغلقت الباب كان تبسمها ما زال مطبوعاً على وجهها.

خشيت أُمي من مغبة قيادتي للسيارة، وأنا بلا رخصة صالحة ولا بطاقة، فماذا لو استوقفني شرطي. طمأنها محمد: لا يوجد تفاتيش، وإن كان فإن أحداً لن يفكر بإيقاف صبي مع أهله. لم تطمئن، التفتت نحو جدتي، وقد ارتدت عباؤها وغطت وجهها بالبرقع، سألتها عن حاجتها إلى الذهاب هناك، طالما لا عرس عندهم ولا عزاء. أجابت بهمهمات لا معنى لها. ربما أرادت الونس، ربما لم ترد إخبارنا بنيتّها. زفرت أُمي، وفيما تمتد يداها إلى داخل ثوبها، حيث صدرها، كأنما تبحث عن شيء ما، جعلت تنادي شروق المختلية في غرفتها، تقول لها: «تعالى بكلمج شوي»، وتصحبها حيث غرفتها هي.

ركبت جدتي حمضة في المقعد الأمامي لسيارة محمد الخانقة. كان صدرها يعلو ويهبط، تلتقط أنفاسها كما لو أنها تسلقت جبلاً، بينما جالت عيناها، تقول: «ما شان الله عليه بو حسين، حطّ الفلس فوق الفلس هوّ وعياله». سرنا في شوارع مقعرة مليئة بحفر مغمورة بالمياه، والسيارات كجمالٍ تنوخ على جانبي الطريق، الطريق التي سيمشي فيها بو حسين وأسرته اليوم، ولآخر مرة، ليخرج، أبداً، من هذه المنطقة. كنا، في قرارة أنفسنا، نعرف أننا سنسلك مثل دربه يوماً، أنه لا مناص من خروجنا من هذه المنطقة، لكنها كانت أفكار بعيدة،

حلمية، مثل أفكار عديدة تخالجتنا. وكنا نتحرق لأن يجيء ذلك اليوم فننتقل إلى مكان أكثر رحابة، وها هو قد اقترب، لكننا لن نخرج سعيدين مثل بوحسين، ولا ندري ما سيكون عليه شكل ذلك المكان.

صبيحة اليوم، كان أبي يقف مع بوحسين عند باب بيته، وقد مرّت شاحنة جمعية خيرية منحوها كل كنباتهم وسرائرهم وخزائنها، كأنهم يزمعون البدء من جديد. سأله أبي من أين جاء بشخص يعرفه ويثق به، كي يتمكن من تسجيل البيت باسمه. أحد أصدقائه الكويتيين، قال بوحسين. أيد أبي قراره، فرح لأنه اشترى منزلاً قسيمة، إذ أن بناء البيوت الحكومية ليس بالجودة المطلوبة. اقترح عليه بعضاً من تصاميم لغرف الأولاد، شكلاً للديوانية الجديدة؛ رغم أن البيت منته، تشاور معه في أمر تصريف المياه وهكذا، وكان بوحسين يهزّ رأسه وعيناه التي نحو العمال لم تطرفاً لأبي قط. وخطفت أم حسين بضع دقائق وسارت إلى بيتنا لتودع أمي، قالت لو أردنا البيت لمحمد وزوجته فإنهما سيراعياننا في الإيجار، فالبيت ما زال لهم، إذ أن بوحسين لا يزال عسكرياً على رأس عمله. شكرتها أمي، وهمست لها أم حسين قبل خروجها: «تري حالنا ما يسرّ، شدينا من البيت لأن فيه بنت حرام -بعيد عنج- راشة سحر بالبيت. طشّرت حالنا كلنا عسى الله يجازيها. البيت كلّه حرب وضرب، أنا وأبو العيال من صوب، والعيال من صوب»، ثم وهي تلتفت لمرأى الكنبات الخارجة، أردفت: «حسدونا هاللي ما يخافون ربهم. قلنا خلاص، مالنا قعدة، حتى الأثاث الجديد شوفة عينج ما تهنينا فيه، عفناه. دعواتج يا الغالية»، وانصرفت. كتمت أمي ضحكتها، كمّت على أثرها؛ «على بالها حاسدينها. طيِّح الله حظها». قال أبي؛ نحسدها علام؟ فردّت أمي: «بعد هذا هم أمّنوا نفسهم، ما شالله». قال أبي إن كل ما أنجز بوحسين وأبناؤه على كّف عفريت، ففي لحظة قد يُسحب البساط من تحته، فيهوي إلى سابع أرض، كأنه ما فعل شيئاً قط.

انعطفت إلى المخرج. بعد سكتة، ودون مناسبة، كأن الاتساع الذي تأخذه الشوارع بعد الخروج من منطقتنا، حفز ذاكرتها، فقالت: «إيه، هذا المكان أول كان خلا».

في ذاكرتها، كانت القرية، المكان الذي اتسع تاليًا وصار اسمه الجهراء، تنكشف بعد المسير في الصحراء، ببيوتها القليلة ومزارعها وقصر الوحيد، مثل سراب، مثل خيالٍ في عين ظمآن.

كلما اقتربوا منها بانّت أكثر، كأن الأرض انشقت عنها فجأة. كانت مثل استراحة، لا يمرها غريب إلا طارئًا كي يدخل إلى المدينة، أو تائهاً في الأرض. تنتصب حولها خيام البدو في المواسم، على حدّ قولها، كأنها حبات خال فوق وجه مصفر، والقرية بينهم مثل بنت عز. قالت: «ياما خيمنا حذاها»، قبل أن تبني عشة من الخشب، تحاذي قصرها، فتسكن فيها.

في ذلك الخلاء، بقيت وحيدة تكدّ يومها كلّ، قالت إنها جربت تخييط الملابس، حملت أبقاص الدجاج. وكان ظل ذلك القصر الطيني يرتفع، يسقط إلى جزء من عشتها، فيجعلها في شبه ظلمة، فلا ترى، في تلك اللحظات، الدنيا بلونها الأصفر، لونها الغباري، إنما ترى لونها خاملاً، داعيًا إلى الراحة، إلى الخمول أبدًا. حملت، كثيرًا، في غمرة تعبها وقتما يسقط ظله إليها، أن تدخل ذلك القصر، أن تكتشف طريقة الحياة فيه، لكن فرصة لم تسنح. حتى وبعد أن تحول إلى متحف الآن لم تطأه.

كانت وحيدة حتى جاءت عيدة مع زوجها حمد، عم أبي. جاء من جنوب الكويت، الأحمدي، حيث كان مشرفًا على عمال النفط. جاءت وقد أسدلت البرقع، مثل البدويات، فوق وجهها. لم تركوا النفط وعادوا شمالًا؟ سألت، مستغربًا من ذلك الرجل، هاوي الفقر. ضحكت جدتي. لقد هام حمد عشقًا ببدوية هناك، وفيما طوت البدوية وأهلها خيامهم ورحلوا، تبعهم جازًا معه عيدة، لا يفكر سوى في عيني البدوية، إلى أن غابوا، وفي الآخر لا من وظيفته ولا عشيقته. ابنتى عشة تجاور أخاه وبقي. وبإيعاز من برقع عيدة، والبدو الذين صاروا جيرانًا لحمضة، لبست حمضة البرقع أخيرًا، عوضًا عن التلثم بشيلتها أسفل أنفها. وجعلت عيدة، في تلك الأيام، تبحث عن مداويات لحمضة، حتى خرجت إلى بيتها الجديد، تاركة حمضة لمصيرها الأبدي.

لم تكن منطقة النعيم، حيث بيت عيدة، بعيدة. كانت بمواجهتنا تمامًا، يفصلنا عنها شارعان. أشارت إلى بيت قريب من مدخل المنطقة، أسمت صاحبه بوسعد. كان واحدًا من جيراننا في أيام العيش، قالت مردفة؛ هذا الرجل صاح على جدك كثيرًا، حتى ملّ منه، ثم كلمني من وراء ساتر، قال: «كلمي الحجي يا أم خليف، خل ياخذ الجنسية، هاي ينتفع بيها الولد وولد الولد، خله يتلحح مثل أخوه»، لكن جدك لم يتحرك، ظل يقول إنها ورقة لا تضر ولا تنفع، ها هو يسكن هنا وحياته متيسرة، فلم هذا العنا؟

كنا هكذا، لا نفعل شيئًا في جلساتنا، إن طالت، سوى أن نحرت في ماضينا. وذكرى بوسعد مع جدنا عجيب كانت نقطة ارتكاز عودنا إلى ماضينا. كان ينتظرنا مستقبلاً ليس بالحسبان، لو أن جدي استمع إلى مشورة جاره. يقول أبي إن الأمر ليس بهذه السذاجة، ولا يشرح كيف. كنا نحاكم جدنا دائماً. ومع مضي الوقت، لم يعد عجيب رجلاً حقيقياً، إنما محض فكرة تحضر في رؤوسنا كلما تعطلت لنا معاملة، كلما أحسنا بفصلنا عن مكاننا، كلما حدث موقف محرج كما تحب الهايشة أن تسمي الأمور التي تُعامل فيها بطريقة غير التي تود. كنا، حينها، نشتمه. وأبي يقول إنه رجل جاهل، آتٍ من البر، لا يعرف إلا ثوبه العسكري الذي عليه، وسيارته التي يقطع بها دروبه، ما أدراه بلجان الجنسية التي تقفل أبوابها بعد فترة محددة، ما أدراه بما تعنيه فكرة الأوراق الرسمية. هذا يفوق مقدرته على التعامل والتفكير؛ لم نحمله ذنب عدم إثباته لانتمائه؟ أليس هو عسكرياً في النهاية، طول الوقت يرونه عندهم؟ وترد جدتي: «چا هوّ ياهل؟ تريد يمسكونه من إيده؟».

أسفل مظلة قبالة بيتهم توقفت. أعنتُ جدتي على المسير حتى باب الحوش. وعبر خيط كان ممدوداً من الداخل فتحتة. قالت: «على الساعة ١١ هيچ، مرني»، ثم عدلت من وضع عباءتها، زمت معطفها، وغابت في الداخل.

بعد عودتها، مارست ما بقي من يومها باعتيادية. وقبل أن تخلد إلى النوم، نقبت في جيبى ثوبها، أخرجت ورقة منديل مهترئة (٢)، ثم زحفت إلى المشجب الخشبي المقابل لسريرها،

راحت تبحث فيه عن حقيبة يدها السوداء، التي لا تحملها إلا نادرًا. رمت المنديل المهترئ في داخلها. قالت: «أريدك توديني السوق باجر».

لكن، في اليوم التالي، انتابتني الحمى. بينما كنت ساهرًا في الغرفة بدأ يحدث الأمر. كانت أمي تتربع أرضًا، تُعيد بانهماك تركيب مسامير أحد الأسرّة القابلة للطي، يرقبها أخي متخصرًا، والبقية شطر يلعب البلاي ستيشن، وآخر بوبجي، واثنان من خلال الآيباد يتابعان مسرحية، وبدأت أرتعش. أشار أخي الذي يلعب البلاي ستيشن مسرعًا: «هيه هيه شوفوا»، كانوا، عبر الأونلاين، يلعبون مع ابن عمتي وضحة في كندا، رغم أن ليس ثمة صيغة تفاهم واضحة بينهم؛ إذ تسقط من ابن عمتنا الكثير من الكلمات بالعربية، فيعوضها بجمل كاملة بالإنجليزية، لا أحد يفهمها، لكنهم، مع ذلك، ما زالوا يواصلون اللعب معه، كجزء من التعارف الذي فُرض بيننا بعد ما حدث قبل أربعة عشر عامًا.

في ذلك العام، رأينا عمتنا في اتصال مرئي، عبر الماسنجر، من خلال كاميرا لاب توب كان لمحمد. لم أرها، لكن الجميع قد فعل، ربما كنت نائمًا وقتها. كان وجهها شاحبًا، رأسها ملفوفًا بشال ملون، يصل حتى حاجبيها المرسومين بخط كحل، كما تصف الهايشة هيئتها. ظهرت مع أولادها الأربعة وزوجها. لوحت للكاميرا بجواز سفرها أسود اللون، قالت: هذا هو المسعد. كان اتصالًا سيئًا، تتباطأ فيه الصورة عن الصوت، ثم ما يلبث أن ينقطع الإرسال ويعود. ألصقت حمضة وجهها بالشاشة لتغطي الكاميرا. ابتسمت. دمعت عيناها بما يشبه توديعًا متأخرًا بينما تتعرف إلى أشكال أحفادها الذين لا تعرف عنهم غير أسمائهم. رغم ذلك، ما تخلت عن كبريائها؛ حاولت، مجددًا، أن تُشعر ابنتها بذنب رحيلها؛ لا سيما بعد أن حاولت التفاهم مع الأحفاد بلهجتها وفشلت. «هذيلا ما يفهمون على حچينا». «ليش ما ظليتوا؟». «سنين وتقولين راح نزورك، قطعوا ريلج هناك خلاص؟». كان وجه عمتي شاحبًا منذ بدأت المكالمة، وحين سألت جدتي عن ذلك، أخبرها محمد بأن جودة الإنترنت الضعيفة تشوش الرؤية. شحب وجهها أكثر حين لامتها أمها، تغضن، لكنها لم تبد حزنًا؛ كأنها سئمت، أو يئست، أو أن هذا كله قد ترسب في داخلها فما عاد يهيج سطحها. قالت ببرود: «التذاكر غالية يمه، تقصّ الظهر والله».

بعد أسبوعين من تلك المكالمة، صحت حمضة مثل أي يوم اعتيادي؛ صلت الظهر، تمددت في الكنبه، ترقبت أمي تضع لها صينية الإفطار قبالتها. يومذاك، لم تخلع أمي ملفعها من رأسها، وحين جاءت تحمل الصينية، لاحظت جدتي انخفاف وجهها، احمرار أنفها، ومخاطها الذي تسحبه كل حين. سألتها: شبيج؟ أو ماتت أمي برأسها نحو الحوش، حيث التتور «دمع عيوني»، ثم اختفت إلى غرفتها، في اللحظة التي خرج منها أبي. جلس مع أمه، يصفق يديه، صامتًا، مثل حارس متمل، وحمضة تكسر البيضة في طرف الصحن وترشف الشاي. كنا في غرفنا نترصد حلول اللحظة. مسحت حمضة بكم ثوبها لطفة شاي على شفيتها، وقالت: «الحمد لله». أمسكت بمسبحتها. ودون أن يتعثر بكلماته، دون أن يخللها بلحظات صمت ريثما تنهيا للنبأ، قال الذي حدث؛ ماتت وضحة، التي لم يعرف أحد منا، بخلاف أمي وأبي ومحمد، إصابتها بالسرطان واستغراقها في العلاج الكيماوي. بينما كانت تسمع تهدلت شفاتها، لكن رد فعل واحد لم يخرج منها.

انتهى كلامه، وهي بعد صامته. تفرس في وجهها، وهي بعد صامته. ثم رفعت سبابتها، قالت: «ليش محدّ قالي إنها مريضة؟». سكت أبي لوهلة. لم يهيب نفسه لسؤال كهذا، قال: «خفنا عليج»، فأنزلت رأسها تهزّه. «وعيالها؟». الأولاد عند أبيهم بالطبع، وفي دولتهم. شدّد على النقطة الأخيرة؛ دولتهم. وكما لو أنّ جارة حمضة هي من ماتت، قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، كأنها تخفف عن أبي، كأن الخبر لا يخص أحدًا غيره. ومضت مطرقة الرأس تعدّ حبات مسبحتها. ظنّ أبي أنه ارتكب خطأ، أنه لم ينقل الخبر بشكل صحيح. طال صمتها وصمت أبي وصمتنا خلف أبواب غرفنا. ربما كانت تبحث في رأسها عن إشارة تؤكد لها أن وضحة كانت بالفعل مريضة. ثم المسبحة سقطت من يدها، رفعت رأسها، شهقت، كأن الأفكار تدافعت في رأسها وتعثرت ببعضها، شهقت مثل شهقة من يتعرض لإنعاش بالتنفس الاصطناعي، شهقة من استيقظ من كابوس. لطمت قلبها بيدها، كأنه نطّ من صدرها، تلوّى صوتها: «يُمّه وضحة بنيتي».

قال أخي: «تعالوا شوفوا صورته بسرعة، لابس سلسلة!». تجمهروا حول التلفاز، مدت أمي رأسها بينما تتفّ المسمار من حلقها. اكتشفوا شيئًا آخر؛ شوفوا، رقبته فيها وشم. قالت أمي

إن ذلك جزء من قميصه، فانبروا يشرحون أن لا، عقدت حاجبيها، قالت إن جميع أولاد عمتي وضحة من بعد عبدالرحمن أنجبتهم هناك، في كندا. ربما كان شيئًا على غرار البدايات الجديدة، كلبس جدتي حمضة للبرقع آنذاك. ثم تركت المسامير أرضًا، ودفعت السرير غير القابل للإصلاح، مدت قدميها متأففة، قالت: «وغَبَّاق يغبقكم، كم مرّة قايلتلكم لا تناقزون فوقهن، هذّني ما هن مثل باقي السراير»، ثم بدأت نوبة عطاس تجتاحني. بادرها أحد الصغار: «يمه، شنو يعني بطاقاتنا انتهت؟». التفتت نحوي كمن بوغتت، كأنها تستجدي جوابًا. سألت آخر: «يعني ما راح نداوم بالمدرسة هذي؟ نرجع نفس قبل!». اتسعت ابتسامته، كركر: «يا رب ياخذونها»، كان ذاك الذي يبحث عن القمصان البنية في السوق. ناصر، المستلقي فوق سريره الخشبي، يعبث في هاتفه، أمسك بعلبة المناديل، وقذفها نحوه صائحًا: «هيه! استغفر ربك يا نعال. ما باقي إلا سنة وأتخرج خرا عليك». قالت لهم أمي وهي تنفض يديها: «مالكم شغل انتو».

لا ندري في أيّ سن، أو متى تحين لحظة إدراكنا لمن نحن وما خصوصية وضعنا. نقضي سنوات عمرنا الأولى في محاولة لفهم ما نحن عليه، نقول عكس ما في أوراقنا، أوراقنا تكتب عكس ما نقول، الجميع يقول رأيه بنا؛ نسمع نفرًا يقول إننا رميننا وثائقنا الأصلية وجئنا ندّعي أننا لا نملك واحدة، نهرع إلى أبي وأمي، نسألهما عن صحة ذلك، فيقول أبي وما يدعونا ألا نظهرها إذا كانت هذه عيشتنا؟ نسمع نفرًا يقول إن ثمة مستحقين وغير، فنخاف أن نكون من أولئك الغير، وما عساهم يكونوا، كيف هي هيئتهم؟ إذ ربما نكون إياهم ونحن لا ندري، وإلا فلماذا ما زلنا على حالنا؟ نسمع نفرًا يعيب بجذور عائلاتنا، ينتقص منها، يتهمها بالخراب، فنخشى جذورنا، ننظر إليها كجريمة، نسمع نفرًا يقول إننا أفسدنا المكان، لوثناه، إننا أناس لا نتبع قانونًا ولا غيره، ولا نستحق رافة لأننا مدّعون، فنتوجس الناس وأعينهم، نقول ربما كنا كذلك، ولأننا كذلك فلن ندرك خطأنا، نكبر محاصرين بالاتهامات، حتى نعرف أننا محبوسون داخل حلقة مفرغة عظيمة، عالم لا منفذ فيه، شبيهه بفيلم The Truman Show؛ ندرك أن ما حولنا مزيف، لكننا نجهل المخرج.

اجتاحني نوبة عطاس ثانية، لففت اللحاف حولي، انتبهت إليّ أمي، قالت: سخّنت؟ اتكأت بيديها لتنهض، وضعت ظاهر يدها على جبيني، ارتفع حاجباها: حارا! ولم أطلب غير حبّتي بندول؛ نزلة برد خفيفة.

فززت من نومي ليلاً. تصببت عرقاً غزيراً. غزتني البرودة، حتى وأنا أتدثر ببطانيتين. حاولت الخروج من الغرفة الباردة. لم أتمكن. كنت بين صحو ونوم. أسمع ولا. أصحو قليلاً، وما ألبث أنظر في العيون التي من حولي حتى يتغشاني النوم ثانية. مرة أصحو وأجد أمي بتياب غير الأمس، تقعي أرضاً بجانبني، راحة يدها فوق جبيني، ثم تقول لأحد لا أراه: «شاب ضو». ومرة، أجد أبي واقفاً، يتأملني، ربما انحنى ليقيس حرارتي. كمادات باردة فوق جبيني. قالت: «يلا يمه، حاول تصحّص وتاكل شي، عشان أعطيك حبّتين بندركس، وتتسبّح بماي بارد». سمعت صوت محمد؛ «ليه بندركس ويتسبّح؟ خل يقوم أوديه المستوصف». رأيته. جالس فوق سريره القديم، يقلّب مسبحة بين يديه. بدا، في تلك اللحظة، مثل رب أسرة. أجابته: «ماله داعي»؛ إذا لم أطب ستعدّ لي شايّاً بالزنجبيل؛ إنها مجرد سخونة. مثلها فكرت حين هبّت بوادر الحمى ليلاً، ربما يصرفني الطبيب إن لم تكن معي بطاقة، ربما أقف في دور الاستقبال المزدحم من خلفي فيرفضني. قديماً، كنا ندفع ديناراً إذا تعذّرت البيانات، أما الآن، فلا أدري ما الإجراء. طلب محمد بطاقتنا المصورة، تلك التي كنا نأخذها خشية أن نفقد النسخة الأصل، فندخل في دهاليز معقدة. ثم إن تاريخ انتهاء البطاقة ليس قديماً، والناس طيبة. قالت أمي: «بالله خذوها منكم هناك؟». زفر محمد: «لا تكبرينها». فلننتظر قليلاً، ربما شفي. غبت في غفوة أخرى. هزّتني فصحوت. سمعت نداءات محمد؛ «عبود قوم، بنروح المستوصف، يلاً». جلست أمي أرضاً، في حضنها تكوّم بلوفر. قمت. رأيت جدتي تجلس فوق سرير محمد القديم، ترمقني برثاء، «يا حبّوبي يا عبود، سلامتك ألف سلامة»، ربما خاب أملها؛ لم أصحابها اليوم إلى السوق. أمي مدت إليّ البلوفر. كان البرد قاسياً، به وخزات تضرب أجزاء من جسدي. بينما سايرتني إلى الباب أطلّث من عيني أمي تلك النظرة المرتابة. وحين تجاوزني محمد إلى سيارته، قبضت على ذراعي، أسرعت تمد يدها إلى داخل جيبتها، أخرجت بطاقة رمادية، دسّتها سريعاً في جيب

البلوفر. تلفتت تتهمس: «هذي بطاقة ولد بويوسف. ادخل فيها ولا تضيعها. حلفت عليك ما تعطيهم البطاقة اللي عندك. محمد مو صاحي، لا تطيعه». كان محمد يستند إلى مقدمة سيارته، شبه جالس، يدخن سيجارة، رافعاً إحدى قدميه إلى الدعامية. في المقعد الخلفي، لصق النافذة، كانت شروق. تبادر إلى ذهني أنني رأيت ما يشبه ذلك من قبل. في واحد من ألبومات العائلة، صورة قديمة تعود إلى السبعينيات، بجودة مضببة، كان فيها أبي يستند إلى سيارة، وفي يده قنينة ببسي، يلبس بنطال شارلستون رجالي، له قصّة شعر طويلة كأنه مغنٍ أجنبي من فرقة قديمة، يحدق إلى الكاميرا مثل نجم سينما من ذلك الجيل، وكانت الصورة قد التفتت سنة أنهى دراسته الثانوية، كما يُفترض بصورة أمي، قبل الانخراط في العالم؛ العالم الحقيقي، الأوسع من سور المدرسة الحكومية. كلما رآها أبي قال بنبرة من يدرك أنه زمن بعيد، ربما موجود في رأسه فقط، أن من يصدق؟ كان الشبه بينهما، أبي ومحمد، جلياً في تلك اللحظة. وكذلك في الصورتين، وإن بدت نسخة الحاضر أكثر اهتراءً.

كان محمد سيوصل شروق أولاً إلى بيت أهلها، قبل أن يعرج بنا إلى المستوصف. تكومت في المقعد الأمامي بحثاً عن الدفء. وطيلة الطريق، لم نسمع صوتاً غير احتكاك عجلات السيارة بالأسفلت.

بعد سقوط أمي وشرخها لخدّها، بعد ذلك اليوم كله، انقلب محمد إلى شخص ساكت، لكنه سكوت الجرس قبل أن يضغطه أحد. قلّت تغريداته حتى كادت تنعدم، واقتصر حسابه على إعادات تغريد لطلبة متعثرين في سداد الرسوم، وشكاوى لأناس توقفت رواتبهم عن النزول، وآخرين يبحثون عن وظائف. صار يستهلك الكثير من علب السجائر، ولم يعد يطيل المكوث في البيت، كما لو أنه يشعر بنفسه سجيناً بداخله، ولم نعرف صيغة لحوار طبيعي متبادل معه. صار، بالنسبة إلينا، شخصاً خرافياً، بوجه واحد. حتى مع زوجته توقعنا شجارات وانعدام للتفاهم، لكنه ساكت كشأنه، وهي ساكته. الناظر من بعيد سيحسبه مرغماً على هذه الزيجة، لكن، حين نوت أمي في تلك الجلسة أن تخطب له ابنة من إحدى بنات خوولتها، وشاورت أبي في الأمر فكلمه، لم يقل محمد شيئاً، إنما هز رأسه موافقاً. ظننا

الأمر مزحة، اختبارًا، وفي اليوم التالي سيعدل عن رأيه. لكنه، في اليوم التالي، ظل موافقًا. في صيف العام الفائت، أقيمت اعتصامات ليلية، بحكم حرارة النهار. بحثنا في صور الحاضرين فلم نجده. بحثنا في أسماء الذين احتجزوا ولم يكن بينهم. لقد كسر توقعاتنا. يومها، كالمنتصرة، قالت أمي لأبي: «شفت شلون؟ رُق وياه بالكلام مثل ما سويت، وبيطيعك». لم يخفِ أبي استغرابه. قال بأنه ربما انعظ من مصير صديقه عبدالهادي، الذي خرج معه تلك الأيام، فصار قيدًا أمني في سجله، وراحت دراسته هباءً منثورًا، ثم سأله كما لو أنه يتحدث بوجوده بينهم متخفيًا: «ليش ما طلعت؟». وأشاح محمد بيديه؛ طز. هكذا، ببساطة شديدة، وغير مفهومة. أنزل شروق عند بيت أمها. كان البيت محض دور أرضي مُستأجر، بحجم كف اليد، يقع في منطقة مجاورة تُدعى، ويا للمفارقة، القصر. قبل خروجها، قالت: «مع السلامة»، وبوجل، كأنها تدرت على قولها عشرات المرات. انتظرها ريثما تدخل، ثم انطلق. عزونا خجلها، بداية، إلى عدم تعودها علينا بعد. لكنها، وبعد قرابة الشهر، بدت هذه خصلتها. قالت أمي إن أم شروق، وبعدها عرفت ألا عودة لمعيها، وجدت نفسها في صدارة المشهد؛ أخرجت أبناءها من مدارسهم، إذ لا قبل لها بالتكاليف؛ منهم من أوشك يتخرج، ومنهم من كان دربه طويلًا. أرسلت الصبية إلى كل مكان، ولو كان تحت القاع، ليبحثوا عن عمل. حبست بناتها في البيت، إنها امرأة، عيبها وعيب بناتها غير مغفور، فليتسترن بجدران البيت حتى يأتي من يتزوجهن. لا تريد لأحد من الناس أن يقول عن فتياتنا: تربية حريم، فتحولت إلى مسطرة؛ تقيس وتضرب. أخرج محمد سيجارة من علبة المارلبورو، وراح يدخن طوال الطريق. انتظرني في السيارة.

كان الجو مشربًا بالبرودة. بدا المسير إلى داخل المستوصف صعبًا. شددت البلوفر أكثر. عند الاستقبال، دسست يدي في جيبتي، أخرجت البطاقة، ولم أتبين أيها مددت للموظف. تحريت رد فعله. تأخر في تسجيل البيانات. لم يرفع بصره. توقف قليلًا. ثم رفع رأسه. سلّمني ورقة الدخول، والبطاقة؛ بطاقة ابن بويوسف.

«طيب والشر عنك متغيب»، قالت جدتي حمضة.

كان قد فُرش لي مرتبتان إسفنجيتان، مع لحاف صوفي، وآخر خفيف. مدتني أُمي بمروحة يدوية؛ أروّح بها عن نفسي في قدر النار هذا؛ غرفة جدتي حمضة. كان ذلك الحل الأمثل حينما أشفى، إذ يستحيل أن تُطفأ مكيف غرفة إخواني في هذا الشهر الخانق.

واستقرت هناك حتى يوم قران سابع، ثم لم أقربها بعد ذلك أبداً.

هامش ٢

أول ما بُنيت المنطقة التي نعيش فيها حملت اسم: الشعبيات الجديدة. اختصرناها لاحقًا إلى: الشعبيات، كأننا ننفي عنها جدتها، بعد أن اكتظت بالأواح الصفيح وتقشر طلاء بيوتها وانكفأ بناؤها.

قبالتنا، تمامًا، تقع الشعبيات القديمة. في بادئ بنائها، كانت بمثل طراز بيوتنا الموحدة، غير أن بناءها قد أُعيد، فاتسعت مساحات بيوتها إلى ضعف بيوتنا، وشُيِّدت لبيوتها الطوابق. صارت الشعبيات القديمة مثل أي منطقة أخرى تقع حولنا.

تحوّل اسم الشعبيات القديمة إلى اسم آخر: النعيم، مثلما تحولت الشعبيات الجديدة إلى: تيماء. غير أن بيتًا من بيوت الشعبيات الجديدة لم يتحول إلى مثل بيوت النعيم.

هناك، في النعيم، كان يقع بيت عيدة.

في صفّ البيوت المطلة على الشارع العام، الشارع ذي الاتجاهين، حيث نحن في الاتجاه الآخر، كان بيت عيدة.

للبيت واجهة بيضاء، قبالة ساحته ارتداد واسع، حيث تُركن فيه سيارات البيت. أُعيد ترميمه في وقت لاحق، فلم يعد يشبه البيوت المجاورة، وشُيِّد له طابق ثالث، ونصف الرابع. يفضي بابه الخارجي إلى الحوش، حوش ذي أرضية لها طابع غريب كأرضية حمّام تشعر بها ستتكسر إذا ما ديست أكثر، ثم يقود الحوش إلى الداخل، الداخل الذي في صغري مشيت فيه عشرات المرات، حيث الصالتان، الديوانية، المطبخ، حمّام الضيوف، غرفة نوم عيدة، والدرج المؤدي إلى الطابق الثاني إذ ينقسم إلى أجنحة لاثنين من أبنائها المتزوجين، فأدخلها، أشاهد الكارتون مع أبنائهم، وألعب معهم البلاي ستيشن، قبل أن يُفقد قرص اللعبة، فترنو إليّ العيون، وتسالني أم أحدهم: «عبدالله ما شفت الشريط؟».

كان بيتًا فيه الكثير من الأبناء والأحفاد. أحد الأبناء بدا صورة من أبي؛ له القامة المربعة ذاتها والظهر العريض ونبرة الصوت. أخبرت أبي عنه، فسارعت جدتي تقاطعني؛ «إيه، هذا ولد أم عزيز، يشبهلك شوي». حتى في طباعه، كان ذلك الرجل مثل أبي. قلبنا جناحه، يومًا، إلى لعبة صيدة ما صيدة. اختبأنا في كل مكان، وكان قد دخل ببزته العسكرية عائدًا من عمله. صرخ بنا أن نخرج قبل أن يكفر بنا. ثم، في زيارات تالية، كان قد ترك عمله، «تقاعد» حسب قول ابنه، الذي في مثل عمري، الذي وجدته معي في مدرسة الحكومة، ورأيت صورته قبل أيام في سناب أحد الأصدقاء يهنئه بقبوله في بعثة دراسية إلى أيرلندا. بعد تقاعده، صار هذا الرجل ملازمًا للبيت، يقف عند السيارات كمن يتفحص أعطالها، يجلس في القعدة الخارجية، متجهماً على الدوام، وعيناه إلى شاشة هاتفه، وإستكانة الشاي إلى جانبه، يصرخ بالسائق، بالخدمة، بأبنائه، كأن يزر ابنه حين استغرب خروجنا مع محمد، الذي صحبنا مرة أو اثنتين، في مسيرة عبر شارع الخليج العربي أيام العيد الوطني، فقال: «غريبة! ليه تطلعون؟ أنتو شدحلكم؟». ذلك الرجل بدا تخيلًا لما قد يؤول إليه أبي؛ هذا التبطل الذي سيصيبه بعد التقاعد، فيجعل منسوب غضبه مرتفعًا. ربما سيكون تبطل أبي جحيماً، وكذلك غضبه، إذ سيحتاج إلينا أخيراً بعدما كنا بحاجة إليه. سترفع الحكومة يدها عنه نهائيًا، ما عدا خدمه غسله ميتينًا، وتكفينه، ثم دفنه.

ودون ذلك الرجل، كانت تقاطعات كثيرة بيننا وبين تلك العائلة؛ الأشباه، نبرات الصوت، وكثير من العلامات التي دلت على تجذرنا من نسل واحد. كانوا أبناء عمنا، نلتقي في ما بعد جد كل منا، وهذا ما لم أصدق، إذ كان ذلك اللقاء في رؤوسنا فقط، لا وجود له في الأوراق الرسمية، حيث تذيّل أسماءهم قبيلة يعود أصلها إلى جنوب الجزيرة، وتذيّل أسماءنا قبيلة تعود إلى الشمال. أبناؤهم الذين بعمرى كانوا ينطقون بدايات الأفعال المضارعة بالفتحة؛ تمشي، تلعب. وقبل أن يتبنى ناصر والهايشة هذا الخيار فيدرّبون عليه ألسنتهم، وبكثير من الخطأ ينطقون بها الكلمات، كئنا نكسر الأفعال؛ تمشي، تلعب. كان كبارنا ينطقون الجيم ياءً، وكبارهم يحاولون الإبقاء عليها. في أعراسهم لا يحتارون مثلنا، إذ يضعون اسم القبيلة التي في أوراقتهم.

كان ذلك قبل أن أعرف بأن جدهم، حمد، مثل جدنا؛ انزوى تحت اسم قبيلة ما. والهايشة أجزمت أن القبيلة التي في وثائقهم قبيلتنا الحقيقية. قالت، استنادًا إلى غوغل، الذي، ومنذ دخولها المدرسة الحكومية، انكبّت تبحث فيه عن أصولنا، إن قبيلتنا نزحت من جنوب الجزيرة إلى حيث الشمال، في هجرة متأخرة، لتنخرط في حلف مع عشيرة هناك، فُنسبنا بمرور الزمن إليها. اكتست نبرتها باعتداد من اكتشف حقيقة ما تمناه أخيرًا. ندت عن أبي ضحكة، قال إن كلامها خرابيط. لكنها ما كانت مستعدة لأن تصدق غير ذلك. حين شرح لها تاريخنا أخرجت لسانها بمعنى: طز، التاريخ إما يكون يمينًا وإما يسارًا، إما من الأصول التي يحبها الناس وإما فلا مهما بدت عراققتها، طز باعتبارات الماضي الذي يشرحه أبي، فلا أحد يهمه ذلك؛ طالما ما زلنا في الخانة ذاتها، ولو أن أحدًا سيهمه، لو أن التصنيف سينقلب، ستبدل مريم، وستنكبّ تسمع أبي، فتتباهى لأنها تملك كل هذا الذي لا يعرفه أحد من بنات ال**، وبنات ال** في مدرستها الحكومية، البنات التي لم تكن تناديهن بغير أسماء قبائلهن حين تشرح موقفًا حصل لها معهن، كأن تقول: طافج يمه هذي ال**. ومرة، عادت من المدرسة حائقة تقول: «سألتنى طالبة، الله يلعنها، قالت انتو** من أي فخذ؟»، أجابتها الهايشة بفخذ كانت تعرفه وتتوقع رجوعنا إليه. بحلقت إليها الطالبة: «أنا منهم، انتو من بيته؟»، احمرّ وجه مريم، لم تعرف بَم تجيب، وافتعلت الطالبة الملعونة انشغالا قبل انسحابها، ثم لم تعد تكلمها أبدًا. لربما أهل أبي مثل الهايشة.

حتى الأسماء، عندنا وعندهم، كانت تتكرر. إذ لديهم ناصر، إشارة إلى جدّ قديم لنا، مثلما لديهم مريم.

وهذا الاسم الأخير يتواجد في ثلاثة أجيال من العائلة. أكبرهن، هي ابنة عم أبي؛ المرأة الجميلة على نحو لا يوصف. كانت بعمر أبي، أو بعمر أمي، لكن شيئًا بها جعل من غير الممكن تصديق ذلك. كانت تسكن في جنوب الكويت؛ الأحمدى، أو المنطقة العاشرة كما نسميها. وهذا ما يجعل لزياراتها المتباعدة نسبيًا طابع احتفالي عند العيال، إذ سيأتي أولادها أخيرًا فتكبر دائرة اللعب. كنت مع بقية صبية العائلة، أصطف للسلام عليها، بينما كانت تخلع عباءتها ونقابها لتعلقهما خلف باب الصلاة، فتسطع منها هالة غريبة، ويتغشانا

عطرها، تُبدي حفاوة بي كلّما سلّمت عليّ، ترفع حاجبيها بابتسامة، تقول: «أهلين». سألتني، في أول زيارة إليّ إلى هناك مع جدتي: «أنت ولد خليف؟». هزرت رأسي. أردفت: «يا حليلك»، ثم انصرفت عينيها نحو البقية، كأنها لم ترني، كأنها لم ترحب بيّ. تتعجب جدتي من رؤياها، تقول لها: «ما شان الله عليج، الناس تكبر، وإنّتي تزغرين»، فيلتوي طرف شفّتها، لا تبتسم ابتسامة كاملة، وحين تنظر إلى بقية أخواتها تقول: «قولي ما شالله حجّية».

وتضحك حمضة، التي يعجبها لبوس دور صاحبة البيت، فتستقبل الضيفات مع عيدة وبناتها، وشالها، في عزّ الصيف، فوق متنيها. تجلس، في زاوية صالة الضيوف، مثل غريبة تسلّت إلى قاعة عرس، لكنها تأبى إلا أن تستعيد امتدادها من مشيخة أبيها. توصي الخادّات أن يدين للضيوف الحلوى والمشروبات، ترحّب بهن، تقول كل شيء وأي شيء، تضرب الأمثلة، حتى والضيقات، من حمّوات البنات، حيث عجائز تنحدر أصولهن من نجد وجنوب الجزيرة كما نسائب ابنتها مريم، لا يفهمن شيئًا من لهجتها. تخرج بناتها من الصالة مثل المبتعدات عن مكان مشبوه. تهمس واحدهن للأخرى: «كملت. حمضة وأمّي. أبد قاعدين بسوق الشيوخ»، وتتأفف الأخرى: «يوه، والله وجهي برّد عند هالحريم! الحين يقولون علينا: هكرة!». وتتبعهم مريم، ليست الهايشة طبعًا، تدعم نظرية أخواتها، وتشير بعينيها إلى جدتي الماكثة في صالة الضيوف: «أحد يطلّعها، يسكّتها، وين سايقها؟ خل يجي يمرها!»، وكانت تتحدّث بلكنة بدوية جنوبية.

وحدها العجوز عيدة بدت مثل خلل في لوحة ذلك البيت. المرأة مربوعة القامة، التي أمست تدسّ كفيها بقفازين أسودين حين خروجها لتخبئ ما عجزت عن إزالته في تلك السنة، كانت تشبه حمضة، تشبه مجموعة العجائز من جاراتنا، بثيابها الخضراء، والوشوم بحاجبيها ومعصمها. مرة، حلفت حمضة أن لعيدة وشمًا أخضر، دكة، في ذقنها، لكنها لم تعد الآن موجودة. أقسمت بنات عيدة بأنها تتوهم، وجدتي تحلف بأن لا. ضحكت عيدة، ويدها تفلّيان خرز المسبحة، قالت: «خلاص يا بنت الناس فضحتينا، شيلتها من زمان، سوّوا لي ليزر زيچ السنة لا عادت من سنة، بعد الغزو، وراحت». لكن بقية الوشوم ظلت متفرقة

في أجزاء مخفية من جسدها تسترّها الثياب والشيلة على رأسها، لقد مزّق الليزر وجهها وأسقطها مريضة لا تريد سوى العافية، وطز برغبة ابنها في إكمال جلسات معصمها وحاجبيها. سمعت إحدى بناتها تهمس؛ «أمي خرّت كل شي»، بنبرة لم تبدُ غريبة تمامًا.

في آخر الزيارة، حين يصل سائق أم كنعان، أو يكون محمد في انتظارنا، تسرع عيدة لتدسّ ورقة منديل بيضاء مهترئة، ملفوفة بداخلها النقود، في كف جدتي حمضة، فتدفعها الأخيرة مسبوقة بأيمان متلاحقة؛ والله ما آخذهن، والله ما يطبّن جيبي، عيب عليّ، وترد عيدة: والله ما ترديني، والله وأمان والله إن ما خذتيهن لأزعل عليّ بعد، لا تبيني ولا أبيع، رغم أنها لم تزرنا يومًا، فترضخ حمضة، وتتسلمها. حتى بعض بناتها كن يمنحنها، لكن ليس بورقة منديل، فتتسابق الأيمان ثانية، وفي خاتمة المطاف، في حين تتهد في طريقنا إلى الخروج، تدسهم وقطعة المنديل المهترئة في جيبيها.

ثم نرجع إلى تيماء، الشعبيات الجديدة.

«إنّ چنت موجود يومها».

قالت، محاولةً أن تذكرني بتفاصيل ذلك اليوم الذي رأيت فيه مستهل القرآن التاسع. سألتني: «شفت شي؟». أجبتها: إي، فهزت رأسها تؤكد لنفسها؛ لقد رأيت القرآن، تُقسم على هذا.

مع ذلك، كانت تعرف، على حدّ زعمها، بأن الفرح والأيام الحلوة، تسبقها بشارات وعلامات تدل عليها؛ مثل الاحتفالات قبل الزواج، الحمل قبل الولادة، السحاب قبل المطر، عكس الضيم، الأسى، يجيء صادمًا، دون نذير، لا فرصة لتوقع مجيئه كموت الغفلة، كالغبار إذ يهبّ.

«أسبوع؟ عليك الله؟». ارتفع حاجباها.

وهي لم ترَ علامات الربيع بعد؛ لا أسراب القطا مرت، لا فرّخت أو باضت، ولا بذور القيقلان تطايرت، ولا مطر جاءها ليُرَبِّع أرضها.

أفردت مسبحتها، عدّت منها سبع خرزات، ثم عزلت عن البقية. كانت تلك هي الأيام التي تفصلها عن القران السابع؛ المجمع والشابع.

منذ ذهبت إلى السوق، منذ رأت هليلة، أمسست حمضة هكذا؛ مثل غصن يرتجف، تكاد أية نسمة أن تطوّحه.

رأيتني، يوم أزمعت زيارة السوق، أخرج مع محمد، فرمقتنا بخيبة. طمانها محمد: ساعة زمن، وكذلك طمانتها أمي؛ لا يفتح السوق بابه إلا بعد الرابعة عصرًا.

كان المضاد الحيوي في جيب بنطالي، وما زلت أشعر ببعض البرد.

كنت قد أمضيت أيامًا خانقة، حتى لمحموم مثلي، في غرفة جدتي حمضة. كانت المدفأة، وعلى الدوام، تعمل بأعمدتها البرتقالية المضاءة. وبينما أزيح اللحاف بعيدًا عني، كانت جدتي حمضة تتدثر بغطائين صوفيين، واحدهما أثقل من الآخر. رأيت، في تلك الأيام، ما كان في ظهرها. كنت أتقلب في فراشي، يلسعني الحر، ثم لا تلبث البرودة أن تلسعني هي الأخرى، فرأيتها، في غبش إنارة المدفأة، تزحف من سريرها إلى المشجب، ترفع ثوبها عن جسدها، وقبل أن أصد إلى الناحية الأخرى، بان في أول ظهرها، حيث تنتهي حدود الرقبة، شيء أشبه بلطخة، لطخة طويلة وضامرة.

سرنا، بسيارة محمد، في شوارع تكاد تخلو من المارة. بدت الدنيا، كلها، نائمة. قال محمد: «ما فيه عاقل يطلع بهالقيظ». لكن أبي، وحده، من يفعل؛ في كل صباح يخرج إلى دوامه، ثم إلى الجهة المسؤولة عنا؛ لعل أمرًا يستجد. كانت له قدرة على الاندماج في حرارة الصيف وبرد الشتاء. قديمًا، لم تكن واجهة البيت تسع وقوف ثلاث سيارات، قبل أن تتخلص أمي من سيارتها، فكان أبي يركن سيارته في ساحة ترايبية، تبعد عنّا مسافة

شارعين، وبدعةً كان يذهب إليها ويعود منها، كما لو كان جزءًا من المناخ. لم نجد ما نقوله لبعضنا طوال الطريق؛ ربما بضع شتائم وزع محمد إحداها على شخص تجاوزه مسرعًا، وآخر قدامنا لم يعبر الإشارة الصفراء. سألني: «شلونك اليوم؟»، ثم سحب سلك الـ Aux. «تسمع شي؟» هززت رأسي بلا، وارتقبت ماذا سيسمع. كانت كل التفاصيل التي تشكل إنسانًا ثلاثي الأبعاد نجعلها في أخي، حتى ما يحبه من الأكل. انبعث صوت مغنية: «وهبت عمري للأمل ولا جاشي/وغمرت غيطي بالعرق ما عطاشي». صادفنا، في طريقنا، عددًا من البقالات المتحركة، الطاولات ببضاعاتها الرخيصة، وقد أشرف على بعضها باعة أطفال، بمثل عمر إخواني الصغار، بمثل هيئتهم. وصلنا حيث البقالة المتحركة، منصوبة فوق رصيف أحد دوارات منطقة جابر الأحمد، منطقة يفصلنا عنها جسر صغير، يطل بعض بيوتها على بحر الدوحة وشاليهاتها. بدت مكانًا خاملاً، غير مطروق، رغم أنها شبه مسكونة بالكامل. تمت الهايشة أن نستأجر بيتًا هنا، قريبًا من البحر، بمساحة ضعف مساحة بيتنا وطابقين، حتى وإن كان البيت متوارياً في شوارعها الداخلية، أو حتى مجرد طابق واحد، ففي النهاية حين تصوره في سناب شات، لن يُظهر الموقع أنها في: تيماء، الشعبيات.

دعاني محمد إلى أن أجلس قليلاً، قبل أن أنصرف بالسيارة. نزلنا معًا. سلّمت على عبدالهادي، صديقه. يلفّ عبدالهادي رأسه بشماغ أحمر، دشداشته ملطخة ببقع مائية، يجلس عند درج البقالة. لا توحى هيئته بأنه درس الهندسة المدنية لثلاث سنوات، في جامعة أردنية. وربما لن يتخيل أحد، من المازة، أن في مفضلات حسابه على تويتر، تغريدات كثر من حسابات عن الهندسة والمعمار، بالعربية والإنجليزية. قبل أن يغادر بسيارته الفورد سلّم المفاتيح لمحمد. كان يلهث، خداه أحمران، كأنه سيقع في أي لحظة، لكنه دائمًا هكذا، لم يقع أبدًا.

جلسنا على كرسيين من البلاستيك فوق الرصيف، بمحاذاة البقالة. كان ذلك العمل الثالث لمحمد، بعد أن ترك شركة الاتصالات، التي ظل يعمل فيها لـ ١٢ ساعة في اليوم. وكان العمل الأول لعبدالهادي، بالتوازي مع بيعه البطيخ في بعض العطل، بعدما تعذر تجديد جواز سفره لإكمال سنته الدراسية الأخيرة. سألت محمدًا عمًا إذا كانا يبحثان عن عامل يساعدهما

بدوام جزائي. ابتسم، كان خافضاً رأسه يخرج علبة سجائره من جيبه. ربما استهجن تفكيري المترف. قال: «لا، مستحيل». كيف سيسددان راتبه إن فعلاً؟ هل سيؤمّنه عبدالهادي الذي يعمل الآن تعويضاً لما استنزف كل ما يملكه أهله خلال سنوات دراسته العبثية؟

اضطرت أن أملاً الصمت الثقيل. سألته عما إذا سيكتفي بالبقالة. نخر قائلاً: «لا يُبه، هذي جذي، لين أشوف لي مكان محترم أتوظف فيه». لم يكن ذلك منطقته، هو الذي سألني، يومذاك، عما أبتغي من تخصص، حين بدا أنه يملك رفاهية الاختيار، بحسبان الاختيارات المتعددة أمامه. قال إنه إذا اعتبر هذه البقالة دخله الوحيد فسيموت جوعاً. وبينما علّق السيجارة في طرف فمه، وأخرج الولاة من جيبه، أضاف: «الحين تغيرت الحسبة، صرت متزوج، وعندي مرة على مسؤوليتي». وقفت سيارة سيلفرادو، أشرع نافذتها شاب بدين يطلب مارلبورو أبيض. بدأت أتعرق، فخلعت البلوفر الذي أرتديه. نهض محمد، يمج سيجارته، مسلماً العلبة للشاب. عاد إلى كرسيه صامتاً، يضع النقود في جيبه العلوي. بدا مطفاً، ليس الذي كان يصرخ في وجه أبي، الذي يصفق الأبواب من خلفه، ويخرج في الاعتصامات. لم يدخل محمد السجن قط، لكنه بدا كالخارج منه. بينما نجلس على الرصيف، وهو ينفث دخان سيجارته، يتأمل المارة بلا تعابير محددة، كان تمثيلاً عملاقاً للكلمة التي قالها لأبي قبل سنة: طز.

قلت: «شكله الزواج خربطك». لم يجب، ظل يدخن مبتسماً. أردفت، ولا أدري ما دفعني لقول ذلك وأنا الذي أشعر بألا كلفة بيننا: «ما توقعنا إنك توافق لما أبوي كلمك على الزواج». كنا متهيئين لشجار يعيد ذكرى الأيام القديمة. نظر إليّ وهو يمج سيجارته، قال: «مردي راح أتزوج بالنهاية»، ونفث الدخان. قد تبدو موافقته بسبب أمي، التي رجته أن يوافق على بنت الحلال، معقولة، لكن أبي؟ تذكر كيف دخل إليه ليستميله مرتباً من أي رد فعل مفاجئ. ضحك ضحكة مصحوبة بكحة، نظر أمامه كمن يصرح بشيء يخجل منه: «ياخي أبوي يكسر خاطري. أنا داري إن فكرة العرس عاجبته، لأنه هو بالدرجة الأولى يبي يحسّس نفسه واللي حوله إنه مقتدر وإنه..»، ثم ملّ فأردف: «إنت فاهم. نفس موضوع دراستك

يعني، اللي كأنه هو بيروح بدالك». لم يكمل سيجارته، رماها أرضًا. دعسها بقدميه، وغمز لي كأنه يخبرني بأني أفهم هذا كله.. إلخ.

بلهجة أخرى قال: «ما دريت أمي شسوت؟». توقفت سيارة بي إم دبليو قبالتنا. في حين همّ محمد إليها رمقني كمن يقول؛ انتظر قليلاً. شرعت الفتاة نافذة سيارتها؛ «عندك زقاير دبل آيس؟». عاد إلى كرسيه، بعد أن فرغ من أمرها، متنهّدًا. راعني أنه لم يشعر بالحر إطلاقًا. كان، في ما مضى، لا يعود إلى البيت إلا وقد قذف نفسه إلى الكنبه، ينادي أحد إخواننا ليصب له كوب ماء. قال إن زوجته شروق جاءت قبل أيام عدة، قالت له بأن أمي كلّمته بشأن العيال. ثم بنبرة تواطؤ، خليقة بالأسرار، أردف: «بيني وبينك طبعًا هالكلام». قالت لها أمي أن تكلم محمدًا لتأجيل الإنجاب، ريثما تتحسن الظروف، وتُدرِك اتجاهنا. وإذا ما رفض، وفقًا لكلام أمي، فهي لديها حل ثانٍ. سكتت عن حلها الآخر، حتى تتأكد من موافقة شروق لها، ثم بسطت قبضتها عن أقراص منع الحمل. داومي عليها، ولو لهذه الفترة. رفع محمد حاجبيه ساخرًا: «على أساس عشنا حياتنا كلّها وحنّا عارفين كل شي قدامنا، وكل مستقبلنا كان مبيّن، وكنا عايلة برجوازية»، أشاح بيده؛ يا عمي بس. خافت شروق، أحسّت بأن أمي تعاني خطبًا في عقلها، فأبلغت محمد. «سألته عن رأيها بالموضوع. قالت ما أدري، أول مرة تفكر من هالجانب، بس العيال سنة الحياة»، ثم رنت إليه كأنها تنتظر توكيدًا منه. كان كل شيء في حياة زوجته قد سار على نحو اعتيادي؛ عاشت ودرست، خرجت من المدرسة، تزوجت، ولكن المعضلة أن كل المتزوجين ينجبون. أشعل سيجارة أخرى. صمت لبرهة. أردف: «بس أمي ضحكنتني. دخلت على شروق كأنها قاعدة تبيع صنف»، وضحك، بشكل يوحي أن فكرة غريبة دارت في رأسه: «بس تدري، بعدما كلمتني شروق، حسيت إنني انصفت»، ثم كرر كأنه متفاجئ من نفسه: «إي والله انصفت». الآن، فقط، صار قريبًا جدًّا من أن يكون أبًا، أن يكون له ابن؛ لحم ودم. «تخيلتني مكان أبوي، إنني بأي لحظة عادي جدًّا أصير مثله». بعد عمر من كيل الاتهامات والتراشق بينهما، قال محمد: «أنا ما أعذر أبوي طبعًا، بس تدري عبود، يمكن حنّا فاهمين غلط؟» ربما ما كان أبي مختلًا بنا وبدراستنا، ربما كان خائفًا، مذعورًا، من أن نتحول، وبكل سهولة، إلى النموذج الأسهل:

التيه في الشوارع، الغرق في أعمال يومية لا تسد الحاجة، والانحراف طبعًا. وكانت الأخيرة تهمة لا تنفك تلاحقنا. سألني: «تظن أبوي چذي كان يفكر؟». ثم ألقى سيجارته أرضًا، نخر، ضحك مجددًا، ثم استغفر ربه، وهو يدعك عينيه: «بس أمي عليها سوالف. إنت تدري إن حركتها هذي سوتها من قبل؟».

آنذاك، ما كان أحد غير مريم ومحمد قد وُلد. وكان أبي مثل محمد حينها؛ كل الأشياء قابلة لاستفزازه ولتحويله إلى وحش. يعود يومًا بعد تحقيقات بشأن أسرته ووظيفته المعطلة، يعود يومًا وقد انتفى تجديد بطاقته. كانت التسعينيات أسوأ أيام حياته، كما دأب يقول. كانت أمي أكثر شبابًا حينذاك. وكان محمد، الذي جاوز الأربع سنوات، يرقد في غرفة حمضة، تلك التي لا تنام الليل كعادتها، فيبقى هو صاحبًا معها، يتبعها مثل ظلها. وكانت الهايشة في سن المهد بعد. أربع سنوات تفصل بينهما، ليس مثلي وإخوتي. يومذاك، انبعثت جلبة غريبة من غرفة أمي وأبي الموصدة. توجست حمضة، مشت ومحمد يتعلق في ثوبها لتطرق بابهما. استمرت الجلبة، تكسر أثاث، وبكت الرضيعة مريم، المحشورة معهما. رفعت حمضة يديها تطرق الباب ثانية، لكن أبي سبقها وفتحها، فوقعت على صدره، وأنهضها بقسوة غير معتادة. سألت: «شبيكم؟ شها للوية؟». ولم تتبين ومحمد مكان أمي في الغرفة كأنما قد اختفت. كان أبي يعلو صدره ويهبط، أشار نحو أمي غير المرئية؛ «اسألي بنت الكلب اللي حذفتيها علي وزوجتيني إياها»، وشرعت تبحث بعينيها: «اذكر الله، عين خير، شها الحجي؟» ثم وجدتها؛ تجلس أرضًا في الصوب الآخر من الغرفة، ظهرها مسنود إلى الدولاب، شعرها منفوش، ودراعتها على وشك التمزق، حتى أن علاقتي شلحتها، ثوبها الداخلي الأسود، برزتا من أسفل الدراعة. كانت تحدق إلى جدتي ومحمد بنظرة لم ينسها محمد، أو لم تكن تنظر إليهما حتى، إذ بدت حدقتها وكأنهما تدومان في اتجاههما. كانت تلهث كمن ركضت طويلًا. لطمت حمضة صدرها بيديها؛ سودة بويهي. سارع أبي إلى التسريحة، قبض على علبة أقراص، ثبتها في وجه أمه مزمجرًا: «الكلبة لقيتها تاكل هالدوا؟ تعرفين هذا شنو؟ ما تبي عيال! ومن غير ما تقولي بعد! أقول لها ليه؟ تقول الأوضاع يا خليف، أقول شفيها الأوضاع؟ بنموت يعني؟ تسكت، ما ترد، چئي حمار عندها ما أفهم!

أقسم بالله إن ما عقلت..». كهمت حمضة حلق ابنها بيديها، رجته: «خلاص، خلاص، بحاجيها، بس إنت اطلع.. اطلع». وعلى الأرجح أن حمضة استخدمت، حينها، كل ما تعرف من ميراث أبيها في المشيخة لفض النزاعات والصلح، واستطاعت أن تجعل أمي التي لطالما سارت حياتها بنظامية معسكر، بخط مستقيم لا يشير إلى انحرافات أو فوضى، على ذمة أبي حتى اللحظة.

مدّ محمد يديه إلى جيبه، أخرج مفتاح سيارته، أشار إليّ بحاجبيه أن التقطه قبل أن يرميه نحوي. «خذ السيارة وروح لجدتك. أنا راح أرجع ويّا خووي». طابت لي القعدة، ولم أود النهوض، لكنني قمت. ناداني كمن تذكر أمراً: «عبود». كانت يداي على مقبض سيارته. «إذا احتجت شي كلمني، أوكي؟». خامرني طيلة طريق العودة شعور غريب؛ تلك الجلسة مع محمد التي ما ظننتها ستحدث يوماً؛ بدت مثل لحظة انقلاب في آخر أحداث فيلم جريمة، حيث تتكشف نوايا مخفية، وتشاهد الوجه الآخر من أبطال حسبتهم أشراراً، وأشياء أخرى. بحثت عن الأغنية التي شغلها، نسيت مطلعها، كتبت ما أذكر منها؛ موجود دوا بس الطبيب ما رضاشي.. والصبر فين؟

ركبت جدتي في المقعد الأمامي، وحقيبة يدها في حضنها. تسلفت أمي إلى المقعد الخلفي، ومن جديد كان العذر: لا سمح الله يوقفك شرطي ولا غيره، عال أقل يشوف معاك حريم، ويمشيك.

«وراچ عرس؟»، سألت أمي مستهجنة رغبة جدتي بشراء بضع أمتار قماشية، بالمرور إلى العطار، وبعض محلات لوازم العائلة. لفتنا الصمت، يكسره هواء الشارع المنسل من نافذة أمي المشرعة. كان الهواء حاداً، يحرك برقع جدتي حمضة وجزءاً من عباؤها. أدارت رأسها، صاحت: «صكيها، صكيها، كفخ راسي البرد». كان جبين أمي قد تفصّد عرقاً، وتبلت شعرات خارجة من ملفعها الذي وسّعت عقدته وهي تتأفف: «ما راح أسكرها، خافي ربح خالتي، متنا حرّ»، وبنفاد صبر مدت يدها تجاه التكييف مردفة: «على الأقل وجهوا المكيف صوبي! ربّي دخيلك.. حمّضت». ضحكت جدتي: «ولج أنا من عمر الدنيا محمضة».

سألتنى بنبرة العارف: «تعرف شنو يعني اسمي؟». أيامها، كانت هناك ثورة: ثورة ريسان. «مناك، بسوق الشيوخ، بالناصرية». وكان كل واحد يحاصر الآخر، لا تدري مَنْ. أضفت، كمن تبرر جهلها: «عاد أنا شمدريني بهالسوالف. المهم أنا ولدت بذاك الزمن، ومن القرادة سموني حمضة. شمدريني يا هو اللي بيهم چان محمض بهالحصرة السودا». ثم أن اسمها أخذ من الحمض، نبتة حامضة كما اسمها، لا تأكل منها غير المواشي.

سألْتُ أمي: «أقول خالتي، شخبار بنات عيدة؟ مريم تمركم؟». أجابتها: «إي، إيْ ذاك اليوم». غمغمت أمي: «من زمان عنها والله». أثبتتها جدتي لأنها لم تدعها إلى عرس محمد، وإلا لرأتها. قالت: «ما شان الله عليها، للحينها حلوة». «هي للحينها ساكنة بالعاشرة؟». استهجنت جدتي: «چا وين تولي؟». أردفت أمي بضيق، كأن سؤالها لم يفهم: «مو طلع لهم بيت قبل كم سنة بسعد العبدالله؟». قالت جدتي: «إي، وبدلوا الأرض بوحدة من عدهم، هناك بالعاشرة، وبنوا لهم بيت فوقها. عيدة تقول باعوه بخسارة، وبطلعة الروح قدروا يخلصون بيتهم. ما تهتوا بيه». وبينما كانت تستند إلى النافذة، وتنظر بعشوائية إلى المعالم من حولها، نخرت أمي ضاحكة، قالت: «وإنتي صدقتي؟ يقولون چندي علشان ما تحسدينهم. ما شالله ريلها يشتغل بالنفط، وهي رئيسة قسم مدري وكيلة مدرسة، بعد ليش تطلع روحهم وما يتهتُون فيه؟».

كبتت جدتي ضحكتها، كأنها تخجل مما ستقوله: «أقلج، هي لو ماخذة خليف، شراح تحصل؟». ردّت أمي: «تحصل مدق يدق عظامها». مدت جدتي يديها قدامها، صاحت بجدية: «وش بيه خليف الله عليج؟». قالت أمي، بجلستها المتبطللة تلك، مقلدة لهجة جدتي: «ما بيه شي، بس بدون، وبيته بالشعبيات، وحافي منتف». كان الحوار قد أخذ منحى غريباً، سألت؛ وما دخل أبي؟ قالت جدتي كما لو أن الأمر يفترض أن يبدو بديهيًا: «وعيل ليش حرب وضرب كل هالسنين؟ يوم أسود اللي حبّ بيه بينتهم؟».

سكنت. سكتت أمي. سكتت. ما من صوت إلا أبواق السيارات، وصرير الأسفلت. ربما كانت زلة لسان. نظرتُ في المرأة المعلقة ناحية أمي؛ لم تبدِ رد فعل، لا تزال تحرق في المارة من

النافذة. إذ حدثت بنظراتي ضحكت، وكما لو أنها تتحدث عن شخص لا يعنيه، أو لا تعرفه عن قرب، قالت: «أبوك كان عاشق»، وأضافت جدتي: «عاشق مسودن».

منذ تلك الأيام، حيث كانت العشة تنتصب إلى جوار القصر، كان أبي يلزم ابنة عمه تلك؛ داخل العشة، في البراح، وأيام يزورون أقرباء كانوا لا يزالون يقطنون بيوت الشعر في الصحراء. لم يفترقا، ظلًا بتعبير حمضة مثل مؤخرتين في سروال واحد. كان جليًا للجميع أن خليف ومريم لبعضهما في النهاية. خطّ شارب أبي، واستوت ابنة عمه امرأة، وانتهى اللعب بينهما. بقي هو في العشيش، وانتقلت وأسرتها إلى بيت في الشعبيات القديمة؛ النعيم. كان خليف حافيًا يمشي حيث النعيم، يلعب مع إخوتها، أو هكذا يزعم، حتى يملّ فيعود. ولم تكن حمضة، المعنية في بردها تلك الأيام، غشيمة عن الحزن في عيني ابنها. التفتت جدتي إلى أمي ضاحكة: «أقلّج، تذكّرين يوم لقي اسمها مكتوب على محوّل كهرباء؟». قالت أمي، بالحيادية ذاتها، وإن لم تضحك: «رثع فينا. قلنا خلاص، يا ذابح يا مذبوح». لم يملّ خليف حتى أخرج من كتب اسمها على المحوّل، ضربه، أسال دمه، وأخيرًا ما كان الرجل يعني ابنة عمه، كانت واحدة تحمل الاسم ذاته. ضحكت حمضة، وكذلك أمي. فرغ أبي من دراسته وحان عرسه. سارت جدتي وعمتي وضحة، عبرتا الشارع الذي يفصل بين قديم الشعبيات وجديدها، عبرتاه ماشيتين، حيث لم تزدهم الدنيا ولم تكتظ الشوارع بالسيارات بعد. كان أبي في البيت يترقبهما، وكان يعرف استحالة ألا يوافقوا؛ إنه ابن عمها.

«عمّك ما رضى، أنا ووضحة فتحنا حلوقنا، وعيدة مرته هبّت بويهه قدامنا، هم هيّ مثلنا ما صدقت»، قالت لأبي. حتى بعد هذه السنوات، لما زالت حمضة مستغربة، غير مصدقة ما دار في ذلك اليوم. كمن تكلم نفسها قالت: هل الولد معيوب؟ ناقص أصل؟ ثم رفعت سبّابتها مستهينة بالسبب الذي رُفض خليف من أجله: «علشان ما عنده جنسية! جا هوّ مو ولد عمها وأصله معروف؟». قالت أمي: «ما ينلام أبوها يا خالة» إذ ما نوع العيشة التي ستحيها ابنته؟ لا تنسي أننا كنا في أواخر الثمانينيات، أيام المرّ. حتى شهادة ميلاد بالحسرة. وقتذاك، تلبّس أبي غضب ما رأّت حمضة مثله قط، كسر التلفزيون، صاح بهم، اختفى من البيت أيامًا لا يعرفون له مكانًا، سبّ وشتّم، اتصل بعمه وراح يلعنه، يلعن الرجل

الذي يريد أن يزوّج ابنته بابتن واحد من معارفه القدامى في الأحمدى، هؤلاء الذين صاروا يُعدون من قبيلتهم. بدا أبي، حينها، شبيهاً بما كان يفعله محمد. كان يخلو إلى غرفته بعد عودته من المعسكر، لا يجتمع معهم في وجبة ولا يضحك، كأنه كبر عشرين عاماً فوق عمره. لم يعد ذلك اللاهني، المحب. لقد تحول مثلما تحول ابنه محمد في زمنٍ آخر.

قالت أمي: «لو ماخذة خليف، شبتحصّل غير شيب الراس وعوار القلب». أدارت جدتي رأسها إليها: «يعني إنتي الحين شيبتي؟»، وأشاحت أمي بيدها: يوه من زمان. تنهدت جدتي: «هذا هو نساها، واللي راح راح». ساخرةً قالت أمي: «إيه صح نساها، وهو مسمي بنته عليها». كان صعباً تصديق فكرة أن أبي أحبّ تلك المرأة، التي سألتني: «إنت ولد خليف؟» ثم رنت إلى البقية، ثم لم ترني بعدها، فكيف رأت أبي وبادلته الحب؟ ربما كان واهماً، ربما أحبّها دون علمها. ضحكّت أمي: «لا يبه، أنا بيدي كنت أوصل رسايلها له، يوم كنت أزور عمك وضحة الله يرحمها».

توقفنا في سوق القيصرية، زاوية السوق. تركتنا أمي، وقفت عند حافة الرصيف، تتفحص الشارع لتتأكد من خلوه، وتعبّر حيث سرداب السوق الصغير.

لم يبدُ أن أمر الحكاية تلك يخصها، كأنه يخص شخصية مستلّة من مسلسل خليجي تتابعه عقب موجز أخبار الثانية عشرة صباحاً، بدت متصالحة مع فكرة أنها زوجة بديلة، وشاهدة على غرام قديم حتى نهايته، مثلما تصالحت مع فكرة الإقلاع عن أقراص منع الحمل لأجل أبي. أعطتني جدتي حقيبة يدها، زمّت معطفها، وحدّت من ميل البرقع، ثم ثبتت العبادة فوق رأسها.

في ليل سبتمبر يمسي الجو أكثر طراوة. شعرت، وقتها، بنسيمه، بهبوب بارد يتخطفني. أخرجت البلوفر من السيارة، وارتديته؛ خفت أن يتحول الأمر إلى أكثر من نسيم.

كان السوق قديماً، تكثر في واجهته محلات الصرافة والهواتف ومكاتب استقدام العمالة المنزلية. قبالته، على الساحة المرصوفة، يفرش بائع عجوز، يتصبّب عرفاً غزيراً، بسطته

من الملابس الداخلية الرجالية، وغتر الرأس، والعباءات الصوفية. توقفنا عنده، تملت حمضة في بضاعته. في ما انقضى من عمرها، كانت تفرش بسطتها للبيع هنا، في هذا السوق، قبل أن تعزل تلك الشغلة وإلى الأبد.

اتجهنا إلى زاوية السوق، حيث تفتح باحة أشبه ببيت عربي قديم، بـ«ليوانين» وحوش في الوسط، تطلّ على سوق آخر له باحة أكثر سعة، تشبه بناء الأسواق التي تظهر في المسلسلات السورية القديمة. في ممرات الليوان، أضواء صُفر تختلط بأضواء بيضاء لواجهات المحلات؛ محلات ذهب، محل عطار تفوح منه رائحة الحناء، وموارد منزلية. كانت سوقًا يلفها هدوء كأنه الموت، مهجورة إلا من عجائز وعمالة منزلية ونسوة يرغبن في وزن غرامات الذهب.

تقدمت جدتي نحو عجوز تلتفّ بعباءة، وتغطي وجهها بالبرقع، أسفل شجرة كبيرة معمرة كما يظهر، تبسط فرشتها على الأرض؛ أقمشة بألوان شتى، بخانق وبراقع، دراريع منزلية جاهزة، ومسبحات. أسفل تلك الشجرة، قبل أن تخلفها تلك المرأة، كانت بسطة جدتي.

بعد دخول الهايشة إلى المدرسة الحكومية، وفي يومٍ ما، أقسمت مريم ألا تعود جدتنا إلى هناك. اختلت بأبي، بأمي، شرحت لهما وجهة نظرها مع غزير الدموع: «مو كافي الأبلات واللي بالإدارة يطالعوني بنظرة شفقة. الحين البنات يعرفون جدتي بعد؟». ولم نعرف ما حدث في المدرسة تحديداً، لكنه بدا إجراء احترازيًا، مثلما انسحبت من رفيقاتها في المدرسة القديمة. لم يكن رفيقاتها، إذ محض بنات كن معها في الفصل، «يخسون يكونون رفيقاتي أصلًا».

طويت بسطة حمضة إلى الأبد، ولم تعد إلى هناك. ظلت لأيام تتحسر على عملها، تقول إن الحال كما لو كانت البلدية قد أزالَت بسطة بيّاع رقي في الشوارع. الشكوى لله، وتتنهد. كانت مؤمنة أن بسطتها تلك هي ما انتشل عائلتنا من مصير مظلم كاد يحيق بها؛ لطالما تمكنت من شراء حفاظات لنا، وعلب حليب، وغير ذلك من مستلزمات طفولتنا، في ذلك الزمن العصيب.

قالت للبائعة العجوز، بعدما بحلقت إلى بضاعتها: «ينطيح العافية»، واستدارت، حيث تواجهها بائعة أخرى، أصغر سنًا، لها سحنة إفريقية، تبسط فرشاة تحوي ما يكاد يماثل البضاعة نفسها. عرضت البائعة بضاعتها، وحدقت جدتي فيها، كأنها تحاول التعرف إليها، قبل أن تنسحب عن بسطتها.

ثم بخطوات تدرك وجهتها، مضت إلى وسط الساحة، حيث تنتصب مرتبة حديدية بأربع أرجل ترفعها عن الأرض، تفترشها امرأة، تبدو بهيئتها كزعيمة للسوق، وهي تلف رأسها بعصابة سوداء تتدلى منها الخيوط/الدناديش، وقد كوّمت عباءتها بجانبها، لا ترتديها، إنما تحيط متنيها بشال طويل. وكما ثوبها، اللذان أخرجتهما من الشال، انحسرا إلى منتصف ذراعيها، كأن الثوب قد غصّ بلحمها. كانت منكبة إلى فرشتها بما حوت من زيوت عطرية، خلطات شعبية، أطوال من أقمشة نسائية وأخرى رجالية، وشالات مثل التي ترتدي.

قالت جدتي: «هليلة».

رفعت تلك المرأة رأسها، لاح وشم يميل إلى اللون الأزرق مثل نقط في ذقنها. بحلقت إلى وجه جدتي. انفرجت ملامحها، ملامحها المتهدلة التي حتى والبدانة تحاول أن تشدها، قالت بصوت متشكك ميّال إلى الفرح:

«مني؟ حمضة السحاب؟!».

شرعت هليلة يديها لتحتضنها، فارتمت حمضة إليها على المرتبة.

جلست جدتي عند طرف المرتبة، قدماها تتدليان إلى الأرض. غمغمتا في الكلام، وبدا من ملامح هليلة وعيني جدتي أنهما تخوضان في شأن جدتي. سكتت هليلة، أشاحت بنظرها بعيدًا، وجدتي تتكلم. قالت هليلة بينما هي تقلّب ببضاعتها: «ما أريده»، ثم ضحكت ضحكة تضر استهزاءً، أردفت: «هذا إذا أقبل». هزت حمضة رأسها، وقد ضمّت أصابعها بعضها إلى بعض؛ يا بنت الحلال، ثم غاب صوتها في غمغمات أخرى. علا صوت هليلة: «ولج

يا مخبّلة، شفتي مطر مزج؟ ابتلت القاع؟». سكتت حمضة، ثبتت هليلة عينيها إلى عينيها، حدقت إليها طويلاً، ثم حين لم تُجب حمضة، أردفت: «عيل شراح يكون بيه الربيع؟». ثم أجابت عن سؤالها وقد نفضت يديها: «مجدب!». لحظتئذ، بدا الوضع مربكاً، كأني أقف إزاء أخوية غامضة. انصرفت هليلة تسوي أقمشتها، ترفع سبابتها: «ربيعي في الآخرة، عند ربي وربح». كانت جدتي تفلي بأصابعها الأقمشة، تدلي رجليها أرضاً، تمعن النظر في النواحي إلا ناحية هليلة، وفيما يشبه تنهيدة طويلة قالت:

«على راحتج خيئة».

ثم تخيرت، أو بالأحرى وقعت يداها على قطعة قماش خفيفة لونها أسود تزينها نقط بيضوية، ودراعة جاهزة. لم تفردهما، أو تتلمسهما. أخرجت ورقة المنديل المهترئة من حقيبة يدها، وقبل أن تكشف ما بها زجرتها هليلة: «والله ما يطبن جيبني».

ودعنا بعضهما بغير بشاشة الاستقبال.

حملت كيسها، دخلنا محل العطار في الزاوية، نظرت في بضاعته، التقطت ليفة طويلة، وصابونة يد من نوع غريب. قالت: «امش خل نرجع»، وقد تلاشى الحماس من صوتها.

عدنا بعد أن خرجت أمي من سرداب السوق، خالية اليدين، تسأل حمضة: «ها خلصتي جهاز عرسج؟». لم تضحك حمضة، لم تقل شيئاً طوال المسافة إلى السيارة. بدت مثل حيوان يتحرك في قفص.

«هذا طريح البيت؟»، سألت جدتي حمضة، كمن استيقظت من غفوة.

كنا في قلب المنطقة التجارية، متجهين إلى الصالون النسائي؛ اتصلت الهايشة تطلبنا أن نمّر بها؛ تغيبت صديقتها التي تعتمد عليها أحياناً في الرجوع. توقفنا عند العمارة. لم يطل الوقت حتى خرجت الهايشة، تنزل الدرجات في مقدمة العمارة، مرتدية نقابها، وقد بدت الدراعة البيتية التي انكشف عنها آخر زرين مفتوحين في عباءتها، وصوت نعليها،

«الشحّاطة»، التي تدخل فيها الحَمَام أحيانًا. «ها وصلت.. ائْمَرِيح»، علّقت أمي التي لم تكن في مزاج هزلي.

في أول أيام استلامها وظيفتها تلك، كانت الهايشة كمن تعمل بموجب شهادتها الجامعية، أو كمهندسة. مرتبكة تذهب إلى السوق قبل صبيحة عملها، تشتري عباءة وملفَعًا جديدًا، وتتَوَّع في انتعال أحذيتها الثلاثة. وفي مزحة، قامت بها أمي مع حمضة، في بداية عمل مريم، اتصلت أمي برقم الصالون، مدّعية أنها زبونة تريد الاستفسار عن منتج. أجابتها الهايشة، بلهجة لا تشبهها، تلوك الكلمات بلسانها، كأنها حضرية تسكن المدينة، فضحكت أمي مفسدة المقلب، حتى مريم افتعلت ضحكة.

ألقت الهايشة بجسدها في المقعد الخلفي، تلهث من الحر قالت: «السلام»، أردفت متعاجلة: «مرّ البنك عبود». سألتها أمي لم. لقد نزل راتبها اليوم، وتريد التأكد مما إذا بإمكانها أن تسحبه، رغم رسائل البنك التي تنبهها إلى ضرورة تحديث البيانات. تنهدت أمي، ولاذت بالصمت. خلعت مريم نقابها، قبل أن نخرج من مربع العمارة حتى. في وقت ما، كان فعلها ذاك ينم عن حماقة، حماقة شديدة، لكنها لم تعد بمثل حماسها القديمة. ربما أدركت، أخيرًا، أنها في عمارة مهلهلة، في مكان لا يطرقه إلا زبائن اعتادوه، وليس ثمة تدرجات وظيفية، أو ضربات حظ تؤهلها لمرتبات وأماكن عالية، كما يحدث للشخصيات المتطلعة والطموحة في أفلام السينما.

نزلت مريم إلى البنك تقبض بكفها على البطاقة. طوال انتظارنا لم أسمع حسًا لجدتي، كأنها كانت غافية. خرجت مريم، تتعلق عيوننا بها، بينما خرفشت أكياس حمضة، وما استشففناه في ملامحها لم يحتج إلى توكيد؛ ليست تقدر على سحب فلس واحد. كانت جدتي قد دسّت يديها في الكيس، تبحث عن قطعة القماش، تلمستها في حضنها، كأنما تتخيل القطعة ثوبًا مخيطة. قالت، وقد غدا صوتها مثل تنهيدة: «الظيم ينّسي، بس تمر هبة حلوة».

ومنذ اليوم التالي، حين صحت على حسّ ذلك الشجار، كانت حمضة السحاب قد انزوت، منكفئة على نفسها.

خرقت زمجرة أبي منامي. صحت أشعر بثقل في بلعومي، يلذعني قليل من البرودة؛
«لأنك أثول، طلعت مع أخوك ووديت جدتك السوق، ما ارتحت، عبالك تعافيت»، قالت أمي
تاليًا؛ بخوف ربما من أن تضطر، ثانيةً، لاستلاف بطاقة ابن بويوسف.

استمر صوت أبي آتياً من الصالة.

ارتمت ناصر على الكنبه، يغطي وجهه بيديه، يتقي خبطات أبي. وقفت أمي حائلاً بينهما،
يذاها إلى صدر أبي، تحاول صدّه؛ «خلاص يا بن الحلال خلاص»، وكان يصرخ: «إنت حمار
ما تسمع الكلام؟». تكوم إخواني الأربعة عند باب غرفتهم، والهايشة تجلس إلى الكنبه،
بجانبها حمضة وقد راحت تنظر إلى ما يحدث بحيادية، كأنها لا تعي شيئاً.

كان مثل المشاهد القديمة، تلك التي كنا نصحو عليها في كل صبيحة عطلة نهاية أسبوع،
لكن بطلها، الآن، ليس محمداً، إنما ناصر. كان قد اختلس، فجراً، مفتاح سيارة أبي ليخرج
بها. لولا أن نسي محفظته داخلها لما علم أبي، لولا أن صوّر نفسه في سناب شات يقودها
على وقع أغنية لما علمنا نحن.

أزاح أبي أمي عن طريقه: «وخري، كلّه منج إنتي، مدلّعته». كادت تسقط لولا تشبثت بذراع
الكنبه. احمرّ وجهه، كأن ناصرًا سرق البيت بأكمله. خرج محمد من غرفته، آثار النوم
مطبوعة على وجهه، يسأل عما يحدث. سرد أبي احتمالاته؛ ماذا لو طاح بقبضة الشرطة؟
ماذا لو حوّل إلى شرطة الأحداث؟ ماذا لو اصطدم بأحد في الشارع، فقرر ذاك الأخير أن
يشتكى عليه؟ و.. و..؟ لم ناصر لا يفكر بغير نفسه؟

خبطه على رأسه، فحشرت أمي جسدها بينهما. وقف يعض على شفّتيه، يحدق إليها. لم
تكن، مثل المرات السابقة، تخشاه؛ وقفت قبالة تماماً، مستعدة لتلقّي أي ضربة محتملة،
قال: «إن ما بعدتي لأصفقج معاه بأكبر ما عندي»، فلم تتزحزح. تقدم إليهما محمد: «اذكر
الله يّبه، تعوذ من إبليس»، فأشار أبي نحوها: «محد خرّبه غيرها».

هرع ناصر خارجًا، حاول أبي استيقافه؛ اوقف يا كلب، وكان ناصر يغمغم؛ والله العظيم ما أقعد، ثم اختفى. لحقته أمي تناديه، وأبي يشير إلى أثرها، ينظر إلينا: «شايفين؟». عادت عند طرف الصالة، كأنما تنأى بنفسها عن ضربات محتملة، تبكي بما يفوق أهمية الحدث: «هو شذنبه يعني؟ ما يكسر خاطرك؟».

«وأنا شذنبي، ماني مسكين؟». انفجر بنا، راح يتلفت إلينا؛ ألسنت مسكينًا؟ أنا الذي أركض من الصبح حتى الليل لأجلكم؟ أشار إلى الهايشة: «هذي أمس تقولي خلاص يبه وقع، علشان ما قدرت تستلم معاش واحد»، أشار إلى محمد: «وهذا اللي زوجناه وهو لا وظيفة ولا تبين، وهناك اللي يلطش مفتاح السيارة بالليل، والعيال اللي الله العالم چانهم بيرجعون مدارسهم شهر ٩ ولألا، وهذا اللي دراسته وقفت، وغير أدوية أمي، ومصروف البيت، ووظيفتي أنا! أنا اللي محدد فكر يشيل عني الحمل»،

لم نرد، لم نبرر، سكتنا، قلنا بعد أيام إنه ما صاح ولا فعل شيئًا كهذا مذ رفضه عمه. دخل غرفته صافقًا الباب. بقينا، نحدق بعضنا إلى وجوه بعض، أمي تمسح مخاط أنفها، ومحمد عند باب غرفته واقفًا، ومريم تكتف يديها، أنفها محمر؛ ربما أثر بكاء الأمس، حين اشتكت لأبي؛ لا وظيفتها ستمكّنها من استلام راتبها حتى توقع، ولا شهادتها تستطيع استلامها حتى توقع.

لم تفعل حمضة شيئًا، لم تقم من مكانها، لم ترم نفسها وسطهما، لم تحلف يمينًا، لم تهدئ ابنها. كانت في مكانها نفسه، الذي نامت فيه البارحة، والمسبحة في يدها. لم تدخل غرفتها منذ أمس، نامت هنا، أسفل المكيف، تسند رأسها إلى ثوب صلاتها المطوي على الكنبه، وتغطي عينيها بطرف ملفعها، كما كان حالها في أعقاب موت عمتي وضحة، حين ارتقبت، خلال أيام العزاء، مقدم جثمانها، وقد تخلّت عن الحوش، وسكتت عن ربيعها كمن تجاوزته أبدًا، ولم تعد تفعل غير البكاء، ثم مزيد من البكاء، حتى يبيح صوتها مثل ماكينة معطلة، وتجف عينيها الأسيانيتين، فتنام، ملتحفة بالعباءة التي لم تخلعها طوال أيام انتظارها لوصول جثمان وضحة، كي تحضنها على الأقل، ولمرة أخيرة، عوضًا عن اللحظات التي

المفتوح من أمام مثل بشت، وفي حين هي تفعل، أعادت، للمرة الثالثة تقريبًا، حكاية القصيدة التي أنشدتها مجنونة في العشيرة.

قبل العيش، قبل بردها الجحيمي، قبل الرحيل الأخير، وقبل أي شيء نعرفه عن حياتها الطويلة. في آخر ربيع عاشته؛ الربيع الذي أعرضت فيه، زارت مضارب أبيها، الذي أزمع بدوره الرحيل إلى الآبار التي يقطن بجانبها كل صيف. أيامها، كان الحجى، جدي عجيل، قد عزم أمره ونوى الرحيل، راسمًا أمامه مستقبلًا بثياب الجيش، تنسيه ضيم هذه الصحراء.

كانت قد تأهبت للفكرة، رغم أنها لا تزال تعجز عن العيش دون فكرة الرحيل، وتوضيب الخيام، والبحث حد الإنهاك عن مورد ماء قريب. كيف شكل العيش في غير الخيمة، في مكان مبني من الخشب أو الطين حتى، تحيط به الجدران من كل جوانبه لتحذ من البراح المترامي قدامها أينما نظرت. حتى الماء، وهو الذي يشقون لأجله، سيصلها جاهزًا، لا تخرجه من جوف الأرض ولا هم يحزنون. إنها الجنة، هكذا فكرت. لكن الفكرة مثار غرابة أيضًا، صعب تصديقها، كما لو ثمة كمين في الأمر؛ ليس معقولًا أن تصير، بين يوم وليلة، مثل نسوة المدن اللائي رأتهن؛ امرأة حضرية، ومدلعة هكذا.

جلست في مضيف أبيها، الشيخ جِوان السَّحاب، عصرًا، في ساعة اختلستها خالية من الخطار، وهو ملتحف بالبشت، يهش الذباب عن وجهه، مجيلًا النظر في وجهها، بحدة تكاد تكسرهما. خشيت أن تكون مخاوفها بيّنة إلى هذا الحد. دنا منها. همس: «بويا حمضة، إنتي راضية تروحين ويا رجلج؟».

حتى بعد هذا الوقت كله، لا تزال حمضة تستغرب لهجة أبيها؛ لم تعتدها خافته هكذا. ولم تعرف بم تجيب. وحين طال سكوتها، رفع سبّابته: «والله لو ما ترددين، من هسه أطلقج منه».

هالها الأمر، حدقت في عيني أبيها؛ ما الذي يعرفه الشيخ جِوان السَّحاب ولا تعرفه هي؟ ربما ليس في القرب من المدن، كما رسخ في خيال بدوية مثلها، راحة. قالت، بعد مضي كل

هذه السنوات، إنها لم تكن غشيمة عن مدينة يبدو وكأن البحر قد لفظها. كانت، بمزات تُعد على أصابع اليد الواحدة، قد تجاوزت سورها الطيني الواطئ، ولم تمش فيها إلا إلى سكة تقود إلى سوق الصفاة، وأخرى تخرج منه. لم تكن غشيمة عن سوقها، الذي أُغلق دونهم في ذلك اليوم البعيد، بعد حادث سرقة في السوق، أجبر حراسه على إغلاق باب السور، وتفتيش كل من في الصفاة. كانت طفلة حينذاك، ارتعبت من مرأى السياط في أيدي الخفراء، من مرأى السراق وهم يُجلدون على ظهورهم في قصر قديم، تحول اليوم إلى مقرّ للجهة المسؤولة عنّا. لكنها الآن، ستلزم حدود المدينة، ستبني بيتًا فيها، لا تطويه ولا ترحل عنه، صيفًا وشتاءً.

سألته: «ليش بوياء؟». أبوها رجلٌ خبر المدن، يعرف تفاصيلها أكثر منها هي الجاهلة، يكفي أنه قد شارك في معركة تُسمى الصريف، لأجل المدينة التي تزمع الرحيل إليها الآن؛ تلك المعركة القديمة التي ما نجى منها إلا قلة، ليس من بينهم جدها الشيخ سحاب. هوم بأصابعه في الفراغ، كأنما يحاول الإمساك بفكرة عصية. غمغم صوته: «شمدريني، يمكنج ما تعنادين..»، ولم يكن الشيخ حيوان من الآباء الذين يظهرن القلق تجاه عيالهم.

ودعت نساء وعجائز العشيرة. بكين وبكت، كأنها لن تزورهن ثانية. وثمة عجوز، تعرف حمضة، مثل كل من في المضارب، أنها في كلِّ حول تفقد حبة من عقلها، وتتخبل أكثر. جثمت العجوز في زاوية بيت الشعر، مثل قربة ماء ضخمة، تشكو من السيارات واللواري، شاحنات النقل، التي تدوس على العشب، وتُفسد الأرض، وتثير الغبار، وتبعث رائحة ما إن تقترب حتى تجعل النسوة يستفرغن كل ما في جوفهن، اشتكت كأن حمضة ستتحوّل إلى لوري ضخم إن استقرت بالقرب من المدينة حيث السيارات واللواري. تجاهلتها حمضة، أحست بأن هذه المخبلة قد أفسدت حزن وداعها. وفي لحظات النهاية، انشغلت حمضة، حسبما تتذكر، بحمل قربة الماء الجلدية بعد أن عبأتها، أو بتثبيت الصرة على جانبي الحمار، ليس يسعفها أن تتذكر، لكن البرد كان يتخطفها، وزبونها الأحمر المثبت فوق رأسها ما عاد يجدي، وحيث تقف في مؤخرة الركب، كانت العجوز المخبلة تحوم مثل غراب، تردد أبيات مفقودة وكسيرة الوزن، دون أن تنظر بعين أحد:

وذن شدت عليها الناس عدّة

وأنا على ظهر الجلب شدت عدّة

ربعي ركبوا.. وهذا ظلّ ينبح عليّ

حدجت عيدة، رفيقة حمضة في هذا الرحيل، تلك المرأة مطولاً. تساءلت: «شتريد منّا هالمغربلة؟ أشوف أحد يبعدها عنّا»، ثم استغفرت ربها عن الشماتة بالمخبولة التي ركبها جنّي الشعر في لحظة عسيرة مثل تلك. وحين لم تكفّ، هوّشت لها عيدة بيدها؛ روعي وهرش يهرشج.

طوال المسير، بينما دبّ البرد في جسد حمضة أكثر، ولازمتها عيدة تشكو سعيير الأرض الذي يلسع قدميها الملفوفتين بالقماش، كانت حمضة تتفكر في كلام أبيها الشيخ، في القصيدة التي فاهت بها المخبولة وبقيت عالقة في رأسها. تناهبتها الأسئلة مثل قطاع طرق مراوغين، وأحكمت لّف عباؤها الصوفية الحمراء حول جسدها أكثر. راحت تطالع الركب الماضي في طريقه أمامها، مثل نقطة، في هذي الصحراء المترامية على مد النظر. تساءلت، كما الآن، عن السبب الذي يجعلها، في هذا الارتحال، مغترة بحلمها كثيراً.

طوال الدرب، والبرد يقرصها، كانت حمضة تستعيز بالله من الشيطان وشرّه وتخاريف السفر. ثم تتذكر بأنها خلّفت شقا الصحراء وراءها، أنها مقبلة إلى نعيم ما عاشته قط، وسمعتة من الحجّي الذي عاش وشاف مثل بقية الرجال. لكنها جربت الحلم، كثيراً ما جربته، وكانت تعرف أنّ ما بين الذي في رأسها وبين الحقيقي هوة. لا العيشة مع الرجل كانت كما سمعت قبل عرسها، ولا امتطاء الناقة بالسلاسة التي تصورت، ولا حمل المياه من الغدران القريبة بالخفة التي تخيلت، ولا حتى غرز الإبرة بالثوب كان سهلاً. ولا أي شيء طابق ما في رأسها، فلم الآن سيجيء ربيعها كما في خيالها؟ كان الحلم دائماً وذن/فرس والواقع ظهر كلب.

وحدها الجنة، التي ستجيء بما يفوق خيالها؛ جنة ربّي وربّك، قالت.

بدأت كأنها تنشر الحكاية في الهواء؛ لم توجهها إلى أحد بعينه، ولم يبداً أحد، في حين لفنا الصمت، رغبة بسماعها. كأنها كانت تحكي لنفسها، تلوّمها على شيء لا نعرفه. ثم صلت جالسة على الكنب، جامدة، لا يهتز جذعها كالعادة، وعيناها تطرفان ناحية من يمر.

حين بقي يومان، أخرجت صندوقها العتيق. تناولت منه الدراعة الخضراء، تلك التي يصلح ارتداؤها لفتاة تجاوزتها حمضة بعشرات السنين. تركتها في حضنها، وجاءت بعدة الخياطة اليدوية. راحت تحاول، دون جدوى، إدخال الخيط في ثقب الإبرة. برمت الخيط لأكثر من مرة، بللته بطرف لسانها، ولم تفلح.

انتبهت إليها أمي: «لا تنعمين خالتي». وإذ فردت أمي الثوب، انتبهت مدهوشة: «هذا شوي ويتشقق خالتي! وين الخام اللي شريتته ذاك اليوم؟»، لكن حمضة لم ترد سوى هذا. رفعت أمي حاجبيها؛ براحتج، وذهبت تخيطه في المطبخ، حيث إضاءته أكثر وهجاً.

ومن جديد، أخرجت المنقلة وملقطها من أدراج المخزن. نفضت، بضربات من يدها، غبار الكرسي. التقطنا ما بقي في خيشة الفحم، وكبناها في حوض المنقلة. عادت حمضة السحاب، بمعطفها الذي يحوط جسدها، للجلوس، في ليلة باردة؛ لي ولها، ورجعت النار تهسهس في الحوش، فلاح دخانها في سمائه. لم تجد قطعة الكرتون. قطعنا لها أخرى لتهدف بها على النار المتطاولة، المحصورة في العلبة المعدنية الصدئة.

ثم، رنت إلى الليل الخالي من النجوم. كانت قد تذكرت قول بوكنعان، عن القران الذي لا يحدث، تحديداً، في يومه، بل قريباً منه.

حين كنت كذلك، سألتها عما رأيت في ظهرها.

ضحكت، ربما افتعلت ذلك، إذ لم تبد ضحكتها صافية. قالت: «هاي دغة». أومأت لي برأسها أن أدنو. فوق الطاولة تركت كوب الشاي بالزنجبيل والليمون، وقد أعدته لي أمي، ليخفف

بعضًا من الحمى الباقية حتى بعد انتهاء المضاد الحيوي.

أبعدت ملفعها عن رقبتها، حاولت أن توسّع من ثوبها، فرأيت بداية الوشم؛ طويلًا، يشبه رسم زهرة، ثم تختفي الساق في عتمة جسدها. كان وشمًا مغايرًا لوشوم جسدها، وممن رأيت من رفيقاتها.

شرعت تحكي حكايته.

في مطلع كل ربيع، زمان، وكأنها بشارة لقدمه، كانت تأتي الواشمة العجرية، الكاولية؛ بتعبير حمضة، تحمل أدواتها معها، تشم الفتيات اللائي شارفن على البلوغ، وتبتدع رسومًا جديدة قد لا يبتغيها أحد، مثل رسمة النوير. وحين تفرغ، وتتبدد أيام الربيع فيحل القيظ، ويصير الناس كأنهم يتقلبون داخل تنور، تعود هي من حيث جاءت، حاملة صرة فوق رأسها فيها حصتها من لبن الغنم والزبد وحاجات أخر. كان ذلك آخر ربيع شهدته حمضة، الفتاة المزمع عرسها خلال واحد من أيامه.

وحين همت الواشمة ترحل، يومذاك، كانت حمضة، التي لم يكفها وشم الهلال في معصمها، ولا النخلة في ذقنها، تتمنى وشم رسمة النوير. لكن زوجة أبيها قالت: لا، هذا خبال.

سارت الواشمة مبتعدة، حتى بدت مثل لطفة سوداء في الأفق، ترقبها حمضة. تحاملت على آلام وشومها الجديدة، وخلصت سارعت إلى درب الواشمة.

قالت حمضة بأنها لا تدري، حتى اللحظة، كيف خلفت كل تلك المسافة وراءها، وهي التي تخاف ما إن ينحسر مرأى الخيام عنها، كأن الأرض، حينها، تكشف عن نفسها. حتى الدرب اليومي إلى بئر الماء الحجرية خلف بيت الشّعر، والبحث عن نباتات العرفج في النواحي، كانا فعلين يربعانها.

نهرتها الواشمة، المتعبة ربما، أمرتها بالعودة إلى خيمتها، وإلا نادى امرأة أبيها. لجأت حمضة إلى خيار أخير؛ قرابة جلدية من لبن الغنم تستلبه من مرعى أبيها الشيخ حيوان، لقاء وشم رسمة النوير في ظهرها، أسفل رقبتها. حدجتها الواشمة من أسفلها إلى أعلاها، كأنها تختبر صدق نيتها، وصوت العلكة بين أسنانها مثل خبزة يابسة تلاك في فم نعجة. أنزلت صرّتها عن رأسها، وما في يديها من حمولة، واتفقت أن تلقاها حيث أشارت؛ خلف هذا التلّ.

بعد أن فرغت من عملها رحلت الواشمة، وبقيت حمضة. كانت وحيدة خلف التلّ، تسدل ثوبها على باقي جسدها. لم تخف من وحدتها، بل إنها استغربت عدم خوفها. حتى حين قامت، كانت تتمطى في مشيها، كأنها بمحاذاة بيت الشّعر. ورغم حرقة الوشم الجديد وألمه، تمهلت تنظر في أكبر مسافة ابتعدت بها، يومًا، عن جماعتها.

تمهلت تنظر بما لم ترَ مثله من قبل، ولا حتى من بعد؛ ربيعًا حين تتذكره الآن يبدو لها أنه ما حدث إلا في خيالها. كانت الأرض، التي حطّت بها العشيرة رحلها أخيرًا، تنعم بمساحات خضر على مدّ نظرها، ماشية ترفل في نعيم العشب، أسراب قطا تفرّخ أينما نزلت، نهار طريّ قصير لا يرهق البشر، وليل أكثر طراوة لا تُشبّ فيه النار.

وقبل ذلك، كثيرًا ما خافت حمضة، إذ الخيام مفتوحة على الأرض المشاع، ولا أحد يعدم الغزاة وفجأة الغارات، حتى وإن كانت عشيرتها في حمى حلفٍ ما. لا تسيّر الأمور بشكل جيد دومًا؛ لا بد من منغص في الآخر، وإن كان على هيئة ذئب تخشى انقضاضه على الأغنام. لكنها، في وقفها تلك، لم يخاتلها شيء من ذلك، بل أحسّت بالأمان، وشمّت رائحة الأرض الجديدة، شمّت نداوة العشب، ولم تفارق أنفها، إلى اليوم.

رنت عيناها بعيدًا، كأنها تنظر إلى قلب الماضي، قلب تلك اللحظة، وابتسمت بحنين. أرادت لصوتها أن يغدو حكيماً، قالت: «الأرض ما ينخاف منها»، وأردفت بأنها عرفت الآن لم ينتقلون من أرض إلى أخرى، وحتى الحيوانات لا تستقر في مكان. سألتها كيف، فتجاوزتني، كأنما لم تسمع.

نسيث آلام ظهرها بسبب الوشم أيامًا. كانت مزهوة، تتحسس الرسمة دون أن تراها، ولمّا استحمت، ابتعدت عن عيون النسوة، وراحت تفرك ظهرها بقطعة صابون الغار، الصابون الذي يأتون به من المدينة، ثم تدعك الوشم بقوة، وتغني: بالك تدوس على الورد وتسوي خله/باچر يصير حساب يبه، لله شتقله؟

سكنت. عيناها تنظران إلى مسبحتها. رفعتها نحوي وقد ضاقتا: «روح غاد حبوبي، برد عليك».

في طرف الدولاب، وبعد سنوات من حبستها في الصندوق، علقت جدتي الدراعة الخضراء، المطرزة بأزهار عدة. كان الثوب، حين فرغت أمي منه معذرة عن عدم قدرتها على فعل أكثر مما فعلت، قد فقد جوهره، لم يبد كالذي رأيته أول مرة؛ استحال مرقعًا. وكان سهلًا التفريق بين خياطته القديمة والجديدة؛ لون الخيط الجديد أغمق، وبشكل فادح، من سابقه. والزهور المرسومة على الثوب، في نسخته القديمة، تنقطع فجأة عند أسفل الركبتين. كان الثوب، بالأصل، معدًا لأن يكون نفوفًا، ليس ثوبًا طويلًا. وكان صعبًا تخيل حمضة ترتدي لونًا زاهيًا كهذا.

جلست أرضًا، قبالة خزانها المفتوحة، ممددة قدميها. عبثت في أكياس زرق مكدسة في داخله. أشارت نحو ثلاجتها، رجتني أن أفتح عبوات الماء، إذ يتعذر على يدها الرخوة أن تضغط على غطاء العبوة وتديره لتفتحها.

وقف محمد عند الباب: «قوه حجية»، وكان في يده كيس نايلون أزرق.

قبل رأس جدتي، جلس بمحاذاتها أرضًا. سألته جاء من أين. كان قد مرّ على الجمعية، ليحضر غرضًا لزوجته. ابتسمت طوال حديثه، حيث أغلقت الدولاب، وزحفت جالسة تجاهه لتسند ظهرها إليه. بجلستها تلك، بدت كيوم كانت راعية، وقد استندت إلى حوض الماء، بعد نفوق آخر أغنامها.

أشار ضاحكًا إلى معطفها: «بسّج ما خستي وإنتي لابسته؟». ابتسمت ساكتة، لم تبرر، كأنها قد عرفت عدم اهتمام أحد بقصّتها. قلت: «خلاص هانت، كلّها يومين». نظر إلينا بعدم فهم، ولم توله اهتمامًا، سألتني: «اليوم جم تاريخ؟» كنت قد أخبرتها صباحًا، وعصرًا، وقبل قليل. قلت: «دخلنا خمسة»، فرمقني محمد. أشرت إليه خلسة؛ الربيع.

تنهّدت. وكما لو كانت تكلم خيالات في رأسها قالت: «إن ما يا هالشهر، خلاص، مالي حاية بيه».

كانت تنظر إلى محمد، كأنما تترقب استغرابه حتى تردف: «لعد خلاص؟ من وين لي سبعين سنة ثانية!» قال لها محمد وهو يهّمز رجليها: «اذكري الله». تلوّت شفّتها بابتسامة مرّة؛ سبعين سنة! الله أكبر! كانت، وهي تلفظه بهذه النبرة الدراماتيكية، تحسّ، حسبما يبدو، بمهابة الرقم أو بفداحتته. وبنبرة أرادت لها أن تكون ساخرة أكملت: «أظنه إن ما إيا هاليوم، بيحي بعد سبعين سنة ثانية».

قال محمد: عيني خير، سوف يأتيك، وسنذهب سووية إلى خباري العوازم، العبدلي، السالمي، وكل بقاع البر، وتهنأ عيناك بالربيع، وترتوين من خضرته، سترين الخباري التي تتشكّل بمياه المطر، وتشمين النوير والنفل والخزامى. غير مصدقة، أشارت إليه بسبّابتها: «إنت توديني؟»، فأجابها: «أفا عليج بس، أنا أوديج!».

لحظتذاك، كان محمد مثل أبي، حين تباغت حمضة نوبات قلقها القديمة، فيهرع إلى مساعدتها. كانت الأدوار، في بيتنا، تتبدل. كنا نعجز عن تخمين بعضنا.

«حبّوبي، ارفعني عن القاع». رفعها: «قولي يا الله». أجلسها على سريرها. زفرت حين حطت فوّهة: ينطيك العافية بعد روعي روعي. وقبل أن ينسحب خارجًا، استوقفته قائلة: «تصدق هم أنا غبية!»، ثم ضحكت، كأنها اكتشفت بعد عناء خطأ سهلًا كان يمكن أن تدركه بسهولة. ما الذي لدي، بعد هذي السنوات، ما يجعلني أترقب الربيع لأجله؟

قالت، وباعدت بين أصابعها، تعدّ، حسبما بدا، خسائرها:

«لا عندي غنم أسرح بيهن، حلالي كله مات»، وأشارت بلسانها إلى طرف الدولاب مشمئزة: «وهذا الثوب، اللّي كتلت روعي عليه، شوفه.. مبلحس! كبرت عليه، والله يضحكن عليّا الحريم إن لبسته»، «والكحل القديم لو حطّيته بعيوني ترمّد»، «وهالطور شسوي بيهن؟ إلّمّن أرشهن؟ ما ظلّ أحد تعجبه ريحتهن، حتى خوياتي مأتّن».

قالت، وهي تنظر إلى الفراغ: «العمر يركض». أمس كانت طفلة تلعب أم حجيم وعظم الضاح، أمس شابة تحمل الماء على ظهرها، أمس حبلى بوضحة. بدا كأنها أدركت، وعلى نحو عنيف، أن العمر قد طار، أفلت من بين يديها مثلما يتسرب الماء من ثقوب المشخال. ها هي عجوز زاوية، جلد على عظم. هممت أذكرها بكلامها ذاك؛ عندي جسم يبرد ويحرّو..

لكن لم يترك لي محمد سعة. كان يواسيها، ويداه تهمّزان ساقها، حتى قالت: «بّطيت راسك»، مبتسمة باعتذار. وقبل أن ينصرف، قالت: «تعال أحبّك بعد روعي إنت»، فاحتضنته، أخذت نفسًا طويلاً قبل أن تقبله على خده، فقبل رأسها.

كان يوليني ظهره، وبدا شديد الشبه بأبي، وبدا ناصر ميّالاً إلى شبهه أكثر. كل تلك الأشباه بدت قريبة من بعضها، أكثر من أي لحظة سابقة.

«يالّا حبّوبي، ردّ الباب وراك» قالت، وكانت إشارة صريحة لصرفي عن المبيت عندها.

تركت الباب مواربًا، وخرجت.

قران سايع

مجمع وشايع

وجاء اليوم التالي.

لم تصحُ حمضة السَّحاب من نومها باكراً، ولا متأخراً، لم تصح أبداً.

كنت نائماً في غرفتنا. كان البرد يتفاقم في جسدي، وقلبي يخفق في أطرافي، في صدري، حنجرتي، أذني، عيني، رأسي كله.

لم تسنح لي فرصة رؤيتها؛ جاء المسعفون وحملوها مغطاة بالأبيض فوق نقالة إلى سيارة الإسعاف الواقفة قبالة بيتنا، بفجأة، كموتها.

كانت ممددة فوق النقالة، من غير البرقع، كما في خروجاتها القديمة من العشة، قبل أمر جدي لها بلبسه. يبستُ أمام الباب الخارجي، أرقبها تغيب داخل السيارة، والسيارة يبتلعها الطريق.

كان معطفها مرمياً على السرير، خرجتُ من غيره، كدت أحمله راکضاً إلى الإسعاف، لكنني جمدت.

اكتفى أبي ببلاغ الوفاة وإذن الدفن. لم يتمكن من استخراج شهادة وفاة لها؛ كان عليه أن يجدد الإثباتات لأجل ذلك. ظل يبكي، كما قال محمد، يمسح دموعه بغترته، وكلما كلمه أحد بكى، فتولى عنه محمد بقية الإجراءات.

دفعني أبي باكياً: «تعال سلّم على جدتك».

كنا في المغيسل، وكانت المرة الأخيرة. كان جسدها، الملفوف بالكفن، ممدداً فوق الدكة الأسمنتية. وقفت عند رأسها، حيث فُتح الكفن، كي نراها لآخر مرة، فنقبّل رأسها لآخر مرة. بدت ضامرة، عيناها مغلقتان، شعرات رأسها البرتقالية الضئيلة يابسة بلا مفع، لم أصدق بعد. دنوت منها أقبل رأسها. كان بارداً، بارداً جداً، تذكرت برد الأذيرق وما عساه يفعل.

حين رفعتُ جذعي، تلبّسني الأمر، كأن ماءً أغرقني فجأة.

رفعنا جثمانها، توجهنا به إلى التراب. كانت مرفوعة فوقنا. أجزمت بأنها ستقوم. انتظرتها تفعل، انتظرتها تفض عنها الكفن الأبيض، وتعتدل جالسة، تصرخ: ولكم شتسوون؟ ردوني البيت يا هوب، الربيع عقب باجر، تردون تدفونوني؟

استقرت تحت التراب متجردة من ثيابها، من شالها ومعطفها، بكفنها الخفيف الذي، حتماً، سيكون دافئاً عكس كفن ابنتها وضحة.

أهلنا فوقها التراب، رششنا قبرها بالماء، ثم تجاوزناها. بقيت واقفاً لوحدي، أتأمل قبرها، وجذعي يختض، كيوم اكتشفت أنها كانت في قران حادي. وكان صوتها يطن في رأسي: شبيك

حبوبي؟

ربّت محمد على كتفي، احتضنني، مثلما احتضنها قبل ساعات. «شدّ حيلك عبدالله، يلاً». قال، وقد كان مبللاً بعرقه. ابتعدنا مطوّفاً كتفيّ بذراعه. التفتّ مرة أخيرة، كان قبرها لا يزال رطباً، ما جفّ ماؤه بعد.

رأينا، في خروجنا، قبوراً بتواريخ قديمة، لها عشر سنوات، أقل وأكثر، وكان العشب قد نما فوقها، مثلما سينبت، قريباً، فوق قبر حمضة، دون أن يحتاج إلى سبعين سنة أخرى.

كان عزاء النسوة في صالة البيت لمدة ثلاثة أيام. أما نحن، فقد ارتأى أبي أن يكون ليوم واحد، في المقبرة؛ ليس لدينا مجلس نقيم فيه العزاء. رفض بوكنعان، استضاف عزاءنا في مجلسه الجديد. تكومتُ في الزاوية، حول نفسي، أبكي، وتجرحني برودة المكيف، مرتديًا البلوفر فوق دشداشتي الصيفية. كانت عينا أبي، بعد أن جفّت، تطيلان النظر في التفاصيل الجديدة للمجلس الذي أضحي مثاليًا. كان مستندًا إلى مسند جلست فوقه أمه ذات يوم، حين تلقت بشارة الربيع.

لم يُذكر اسمها في نشرة أخبار التاسعة، لم تُكتب في قائمة وفيات الغد، كما لم تكن لها شهادة وفاة، كأنها كانت محض خيال في رؤوسنا. أعلنّا خبر موتها في ستوري الواتسآب، في رسائل جماعية بكافة التطبيقات، بإعلانات في شوارع محيطنا. كانت الصيغة الرجالية لدعوة العزاء تقضي بذكر الميتة باسم ابنها الأكبر: أم خليف الفلاني، والصيغة النسائية، تذكرها باسمها، مضافًا بعده بقوسين كنيته بابنها. نشر محمد خبر وفاتها بالصيغة النسائية، واستبدلت بها الهايشة الرجالية.

كان البيت في الليل، بعد عزاء يوم طويل، هاجعًا. استيقظت بعد غفوة مفاجئة، فوق كنبه الصالة، يهطل عرقي، مبللاً دشداشتي. كنت ملتحفًا بغطاء صوفي، والمكيف تهدر فوق رأسي. رتت الفكرة في رأسي، كما لو كانت هي من أيقظني: اليوم هو القران السابع. مشيت إلى الحوش.

كان باب غرفتها الصفيحية، المظلمة، مواربًا، كما تركته في الأمس. دفعت الباب فصرّ. أضأت النور. كان كوب طقم الأسنان في مكانه، المدفأة الكهربائية المغلقة، هدير الثلاجة بما ضمت من عبوات الماء مفتوحة الأغطية، السرير بالشرشف غير المرتب بعد أن سحبها المسعفون منه، الدراعة الخضراء في طرف الدولاب، ورائحة عطر نفاذة لا تشبه شيئًا شمته من قبل. وكلما اقتربت من سلة القمامة، ازداد ضوع الرائحة. في السلة، وجدت الصندوق القديم مرميًا، مفتوحًا، يتناثر في داخله فتيت زجاج قنينة العطر الزيتي، وأسفله كان الزبون، العباءة القماشية السوداء، مكومة في السلة. كل هدايا أمها.

تركت كل شيء على حاله ومضيت. بعد فترة، ستؤول الغرفة إلى محمد وزوجته، وسيخرج عددٌ منا لينضم إلى غرفته السابقة.

كانت آثار جلستها، في الحوش، باقية، مثل أطلال تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد. تعلق كرسيها المهفة الكرتونية الجديدة، قبالتها المنقلة لا تزال تحفل برماد فحم الأسبوع الماضي. وفي الزاوية كيسُ الفحم، حيث أوشكت تنتهي قطعه.

كان أحدهم قد ترك الباب الخارجي مشرعًا.

لمحت طيف امرأة في بيت بو حسين، حيث طوال الأمس، وقت انغمارنا في العزاء، كان ذلك البيت قد استقبل أناسًا جدًّا. وقفت عند العتبة الخارجية، فرأيت عجوزًا مربوعة الحجم، تقف قبالة البيت لترمي شيئًا في حاوية القمامة. كانت ترتدي شالًا قطنيًّا؛ إنها هليلة، لا سواها. من خلفها تصاعد دخان من حوشهم. استدارت عائدة إلى الداخل، ومن فرجة الباب، قبل أن تصكّه، رأيت منقلة فحم، تحاوط نارها بما يشبه علبة بيضوية، وصدئة.

رفعت المهفة الكرتونية، وجلست. حاولت ألا أحدث ضجة.

ما من وقت للحزن، كانت الحياة تدهمنا. صبحًا، بعد قليل، سيخرج أبي إلى الجهة المسؤولة عنّا، وسيوقع. لا، صاح به محمد، وهو الذي ترك الصياح منذ زمن، قائلاً له لنتنظر. كانت المدارس ستشعر أبوابها بعد يومين، وفاتني التقديم على الجامعة في هذا الفصل، وتكدّس راتبين من رواتب الهايشة في البنك، وتجمّدت مدخرات أبي، وحمضة بلا شهادة وفاة. حتى متى ننتظر؟ سأله أبي. فلنتنظر، كرر محمد، مستعيرًا الجملة من لسان أبي؛ شنو عندنا نخسره؟ لا بد أن أمر البطاقات سيحلّ، والزوبعة ستهدأ، وتعود الحياة إلى سابق عهدها. لم نكن غشيمين عن الانتظار، لكنه كان لا يزال، في كل مرة، يباغتنا، مثل لكزة في الخاصة.

مثلها، حاولت البحلقة في السماء، واكتشاف النجوم. تُرى ما الذي سيحدث لو أن جدتي حمضة رأت قران الربيع اليوم؟ هل كان سيجيء فعلاً؟

ثمة غيوم شفافة، تتدافع بحركة متلاحقة مثل سرب حمام. إحداهن، كشفت عن مجموعة نجوم. لكنها محض نجوم متناثرة، لا تشكل قراناً ربما، ولا حركة حول نجم ما. لا أدري، الأمر معقد.

أحكمت لف البلوفر حول جسدي أكثر. كان البرد جحيميًا، أكثر من أي وقت مضى. تناهى إلى سمعي خشخشة أصوات. كان محمد يقترب، يجلس على كرسيي آن كنت أجالس جدتي حمضة. كان زراً ثوبه الأولان مفتوحين، بلوزته الداخلية البيضاء مبقعة بالعرق مثل جبهته الملتمة. كانت السيجارة على زاوية شفتيه، ممسكًا بالولاعة، يهيم بإشعالها. سألني: «فيك شي؟»، وأجبت: «برد».

أثناء تلاحقها، كشفت السحب عن نجمة قصية، تبعد عن المجموعة التي رأيتها، كما لو أنها حزينة، كما لو أنها تخشى البقية. كانت مطفاة، شاحبة، ربما أومضت.

سألني: «أوديك الطبيب؟»، فسألته: «يستقبلني؟». سكت يمج سيجارته. كئنا ليلاً، لا وقت لطرق باب بيت بويوسف ثانية، واستلاف بطاقة ابنهم. لنتنظر ما سيحدث مع أبي.

أمعنت النظر في تلك النجمة. توهجت مثل خزامة. هالني توهجها. بدت كأنها تحييني. اغرورقت عيناى. رفعت عيني صوبها ثانية، فلم أجدها. كانت السحب قد غطتها، وغطت النجوم الأخريات. إن القران، بحسب بوكنعان، لا يأتي في يومه المحدد؛ قد يتأخر بضعة أيام أو يتقدم. ربما كان الربيع في الغد، أو بعد غد.

النهاية

الجهراء، الكويت

1. الغلاف
2. باقي الوشم
3. باقي الوشم
4. قران حادي
5. قران تاسع
6. هامش ٢
7. قران سابع